التقوى سبيل الجنة

دكتور
أحمـــــد فـــــرج
مراجـعة
البروفيسور / يسري سعد عبد الله أحمد
أستاذ الحديث بجامعة أم درمان الإسلامية

الطبعة الأولى
1441هـ- 2019م

يطلب من
مركز دار الفراديس للبحوث والطباعة والنشر
أم درمان – غرب الجامع الكبير
عمارة المعهد البريطاني - ٠١٢٨٠٠٧٢٢٥

إهداء

إلى أبي الذي تعلمت منه التقوى والتفاني في العمل

وإلى أمي التي تعلمت منهـا الإيثار والجـــرأة والكـــرم

أهديكم هذا الكتيب

جعله الله تعالى في ميزان حسناتكم

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ إِنَّ ٱلْمُتَّقِينَ فِى مَقَامٍ أَمِينٍ ﴿٥١﴾ ﴾

الدخان

مقدمة

الحمد لله فاطر السموات والأرض، عالم الغيب والشهادة، وخالق كل شيء فقدره تقديراً! الحمد لله الواحد الأحد، كان ولا يزال وسيكون أبدا واحدا أحدا، لا شريك له ولا ند ولا ولد. يقول الله تعالى:

﴿ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (١٢٤) (طه)

أما بعد :

فإن أي عاقل حين يعلم أنه مقبل على أمر عظيم في مستقبله، فلا بد سيستعد له، ويتهيأ لما فيه، فإن كان هذا الأمر يحتوي جائزة عظيمة فلا شك سيزداد اهتماما وسؤالا واستعدادا فيسأل: كيف الفوز بتلك الجائزة وكيف السبيل إليها؟، فإن كان مع الجائزة عقاب لمن يقصر في العمل لذلك الأمر العظيم فلا شك سيصبح أمرا عنده لا يحتمل التفريط، ولا يحتمل إلا الجد في العمل لذلك الأمر العظيم. فإن كان الوقت محدد بوقت غير معلوم انتهاؤه، والجزاء على حسب ما قدم فيه ثم لا رجوع ولا عودة ولا إعادة فلا شك سيتهيأ لهذا الأمر في كل لحظة من حياته.

والعقل هو نعمة من الله على عباده، أعطاهم إياه ليتبين أحدهم ما ينفعه وما يضره في عاجل أمره وآخره ومستقبله، وليميز الإنسان بين الخير والشر، وبين

الحق والباطل، وبين الخطأ والصواب، فإن لم يستخدمه لذلك فهو في الدنيا أحمق يعيش كالأنعام يأكل ويشرب إلى أن يأتيه الموت.

وإن أعظم ما يستقبل الإنسان هو حياته بعد الموت، لأنها الحياة الأبدية التي لا موت فيها ولا انقضاء لها. وإن أعظم موقف سيلاقيه بعد الموت هو وقوفه بين يدي ربه الذي خلقه لعبادته، وأرسل إليه رسله، وأنزل له كتبه ليهتدي بهم حتى لا يضل في الدنيا ولا يشقى في الآخرة، وجعل له جزاءً الجنة إن أحسن طاعة ربه، وجعل له جزاء النار إن عصى وأبى إلا اتباع هواه، وجعل له أجلا غير معلوم لا يُؤخر ولا يُقدم ليتهيأ للقاء ربه ويستقيم على عبادته في كل حياته، فذلك حق عليه مفروض من رب العالمين، ولذلك خُلق.

ومهما خادع الإنسان نفسه ليتناسى الموت، أو ليتغافل عن الآخرة فإنهما آتياه لا محالة، وهما ملاقياه لا شك في ذلك.

يقول الله تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾ (الجمعة: ٨).

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ ٱللَّهِ حَدِيثًا ﴿٨٧﴾ ﴾

(النساء: ٨٧)

ولذلك فإن العاقل ينبغي أن يستعد للقاء الله تعالى ووقوفه بين يديه في كل لحظة من حياته، فإنه لا يدري متى يحل به الموت، فلا يمكنه استدراك ما قصر فيه، ولا يستطيع أن يكفر عن ذنوبه وملذاته وشهواته التي أنفقها في معصية الله، ولا أن

يفتدي نفسه بشيء، وحينئذ يندم وقت لا ينفع الندم.

وكل راحة وتلذذ بمعصية الله في الدنيا سيعقبها الندم والعذاب في الآخرة بعد شقاءٍ في الدنيا، وكل تعب في طاعة الله في الدنيا سيكون راحة ونعيماً في الآخرة واطمئناناً في الدنيا، ولذلك كان بعض السلف يُجهد نفسه في طاعة الله، فكلمه الناس أن يريح نفسه ولو قليلا، فقال: "راحتَها أريد" وتلك الراحة لا سبيل لها إلا بسلوك سبيل الصالحين الذين سبقت لهم من الله الحسنى، والذين ختم الله لهم بخير، وكانوا أعلام الهدى من الأنبياء والصحابة والتابعين والسلف الصالح، فعلى طريقهم النجاة والفوز، وليس عن غير طريقهم سبيل للنجاة ... هؤلاء الذين فقهوا دين الله وقاموا بكتاب الله، وكانوا أحسن الناس أخلاقا، وأعظمهم خشية وحبا لله سبحانه وتعالى.

وهذا الكتيب يتلمس سبيلهم الذي سلكوه، وطريقهم الذي سابقوا عليه، والدرب الذي اعتصموا به حتى نجوا وفازوا، ومن كرم الله بعباده أنه لا يطلب منهم الوصول إلى ما وصل إليه السابقون من نتائج حتى يكونوا معهم، بل أمرهم أن يلتزموا وراءهم بهذا الصراط الذي خطه الله لهم حتى يموتوا عليه فيُلحقهم بهم أرحم الراحمين...

جاء أعرابي جهوري الصوت قال: يا محمد الرجل يحب القوم ولّما يلحق بهم؟ فقال رسول الله عليه وسلم: " المَرْءُ مَعَ مَنْ أَحَبَّ"(١)

(١) أخرجه الترمذي (٢٣٨٧)وحسنه الألباني.

والمقصود بالحب هنا هو الحب الصادق الذي يدفع المحب لأن يكون متأسيا بمن يحب ومتبعا له.

ويقول الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ قُل لَّا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ (الأنعام: ٩٠)

أسأل الله العظيم أن ينفعنا بما علمنا، وأن يجعلنا على سبيل الصالحين وأن يدخلنا فيهم برحمته، إنه جواد كريم، وهو أهل للعفو، وهو أهل التقوى وأهل المغفرة.

المؤلف: أحمد فرج

المُـتـقـون
أهل النجاة والفوز

نعم، فإن التقي هو من سينجو على الصراط يوم القيامة برحمة الله، يقول تعالى:

﴿ ثُمَّ نُنَجِّي ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّنَذَرُ ٱلظَّٰلِمِينَ فِيهَا جِثِيّٗا ٧٢ ﴾ (مريم: ٧٢).وهم أهل الفوز يوم القيامة بفضل الله:

﴿ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَخۡشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقۡهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَآئِزُونَ ٥٢ ﴾ (النور: ٥٢).

والمتقون هم أولياء الله تعالى:

﴿ أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ ﴾ (٦٢-٦٣)(يونس) .

فأهل التقوى هم أهل النجاة وأهل الفوز يوم القيامة دون غيرهم من العالمين. وهم أولياء الله من دون الناس، ولا ولاية لغيرهم مهما ادعوا من كرامات. فالتقوى هي سبيل الصالحين الذين سلكوه، واعتصموا به حتى نالوا الفوز بالجنة والنجاة من النار.

والتقوى هي حق الله على عباده بالتزام طاعته في كل حياتهم. والتقوى هي التي يحصّل بها المؤمن خيري الدنيا والآخرة وثمراتهما.

لكن ما هي التقوى، ومن هم المتقون ؟

إن كثيرا من الناس يظن أن التقوى هي تلك المشاعر التي تدفع المسلم للبعد عن الحرام فحسب، وإن كان ذلك منها لا شك، لكن التقوى أعظم من ذلك. وقد عرفها كثير من العلماء تعريفات كثيرة، ولكن ليس هناك وصف للتقوى أدق وأعظم وأشمل من وصف الإمام علي كرم الله وجهه؛ قال رضي الله عنه عن التقوى:

هي الخوفُ من الجَليل ، والعملُ بالتنزيـل ،

والرضـا بالقليل ، والاستعدادُ ليوم الرّحيل.

فهي ليست شعورا لا يصدقه عمل، أو كلاما تكذبه الأفعال، ولكنها حاجز نفسي وشعور داخلي يمتلئ مخافة لله، يحجز المسلم عن محارم الله، ويدفعه لإتيان ما أمر الله به. والتقوى هي خوف من جلال الله وسخطه، وعمل بما في الكتاب والسنة في السر والعلن، مع الزهد في زائد الحياة الدنيا، وترقب للحظة الموت التي لا مفر منها لجميع الخلائق التي قال الله فيها في كتابه العزيز.

﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ ﴾ .(سورة ق: ١٩)

تلك هي التقوى؛ خوف من الجليل-الله-الواحد القهار الذي له ملك السموات والأرض، وعملٌ بما في التنزيل -كتاب الله الحكيم- الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والرضا بالقليل من متاع الحياة الدنيا، والاستعداد ليوم

الرحيل ولتلك الساعة التي ينتقل فيها الإنسان من الحياة الدنيا إلى الحياة الباقية التي لا موت فيها ولا انقضاء لها.

وهذا الكتيب يبين التقوى كما عرفها الإمام علي كرم الله وجهه، بعد أن غابت حقيقتها عن قلوب الناس، وأصبحوا لا يفقهون منها إلا ظاهرها أو جزءً منها مثل كثير من أمور الدين.

أسأل الله التوفيق والسداد وحسن البيان، وأن ينتفع به كل من يقرأه، والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل.

الخوفُ من الجَليل
(ويحذركم الله نفسه)

الخوف من الله تعالى هو الرهبة منه، ومن عظيم جلاله، ومن الوقوف بين يديه ومن عذابه، وأنه يعلم سر العبد وجهره وما توسوس به نفسه؛ وهو خوف مقترن بالمحبة والتعظيم، وتلك هي الخشية.

فالملائكة الذين لا يعصون الله طرفة عين، ومجبولون على طاعته يشتد خوفهم من الله وخشيتهم منه أشد الخوف والخشية، إجلالا ومهابة لله تعالى.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

(مررت ليلة أسري بي بالملأ الأعلى، وجبريل كالحلس البالي من خشية الله تعالى.)[1] أي: كالكساء الممزق الذي يوضع على ظهر الدابة، وكل ذلك رهبة من جلال الله وعظمته.

فالله لذاته مستحق للرهبة منه والخوف منه، ومستحق للخشية ولو لم يتوعد بالعذاب؛ سبحانه ما أعظمه، لا إله غيره، هو الواحد الأحد وكل شيء خلقه، وكل ما خلق عبدٌ له.

وإدراك عظمة الله على وجه الحقيقة مُحال، ولكن استشعار تلك العظمة في أسماء

(١) في المعجم الأوسط للطبراني رقم (٤٦٧٩) ورجاله رجال الصحيح. صحيح الجامع للألباني رقم (٥٨٦٤)

الله وصفاته، وفي خلقه وآياته في الكون يجعل الإنسان يتهيب جلال الله، ويستشعر عظيم قدره، ولكن أكثر الناس لا يتفكرون في صفاته ولا في آياته.

ولو لم يعرف العباد من صفاته إلا أنه يعلم السر والعلانية ويعلم ما في الصدور، ولا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، لكان كافيا لامتلاء صدر الإنسان رهبة وخوفا من الله الرقيب الحسيب.

عن ابن عمر أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قرأ هذه الآية ذات يوم على المنبر: ﴿ وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (الزمر: ٦٧).

ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول هكذا بيده، يحركها يقبل بها ويدبر: " يمجد الرب نفسه: أنا الجبار، أنا المتكبر، أنا الملك، أنا العزيز، أنا الكريم ". فرجف برسول الله -ﷺ- المنبر حتى قلنا: ليخرن به.[1]

فالله هو العلي العظيم مالك الملك وملك الملوك، ذو الجلال والإكرام، وذو القوة والجبروت، قهر عباده، وتعالى عن خلقه، لا حدود لقدرته، ولا منتهى لعلمه، فالجلالُ له فِي ذاته، والكرامة فائضةٌ منه على خلقه. لـمّا تجلى سبحانه للجبل جعله دكا وصعق موسى عليه السلام من هول ما رأى فقط من اندكاك الجبل.

وإن النار بأهوالها شيء من علمه وقدرته، خلقها ليعذب مَن شاء من عباده العاصين. والمؤمن العالِـم يخاف من غضب الله وسخطه أشد من خوفه من النار،

(١) رواه الإمام أحمد (٥٤١٤) وصححه الشيخ الألباني رحمه الله في " السلسلة الصحيحة " (٧/ ٥٩٦)

وإنما النار محلٌ لغضب الله تعالى، ولو شاء الله لخلق أفظع منها وأشد، ولو شاء الله أن يخلق خَلقا يُعذّب به النارَ نفسها لكان ذلك عليه هينا، ولكنه شاء للنار أن تكون عذابا للعاصين والمشركين، وهي من الهول ما لا يستطيع أن يتصوره بشر أو يدركه عقل .

عن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لجبريل : **ما لي لم أر ميكائيل ضاحكا قط؟ قال: ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار.**(١) .

فهذا ملك لم يعص الله طرفة عين، وهو من الملائكة المقربين، لما رأى هول النار حين خلقها الله لم يضحك بعدها خوفا من أن يلقيه الله فيها.

ومع هول النار فمَقام الله أعظم، ولمن خاف هذا الـمَقام العظيم يوم القيامة، ووقوفه بين يدي ربه جزاءً مضاعفا، وكله فضل من الله، يقول الله تعالى:

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾ ﴾ (الرحمن: ٤٦).

قال مجاهد: هو الرجل يهمّ بمعصية الله تعالى، ثم يتركها مخافة الله. فالله هو المستحق لأنْ يُهاب لسُلطانه، ويُثْنى عليه بما يليق بعلوِّ شأنه، لأنه الله المستحق لكل صفات الكمال والكبرياء والقوة والجبروت، ليس كمثله شيء سبحانه، ما قَدَرهُ العباد حق قدره، ولن يُوفُّوه عبادته.

والخوف والخشية من الله القوي القهار ركن من أركان التوحيد، فقلب لا يحتوي الخوف من الله قلب إما غافل عن الله، أو قلب كفر بالله سبحانه وتعالى.

(١) مسند الإمام أحمد رقم-(١٣٣٦٧) حسنه الألباني في السلسة الصحيحة ٢٥١١-٦/٤٢).

وقد أمر الله به سبحانه وتعالى وجعله شرط الإيمان فقال:

﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾ (آل عمران: ١٧٥)

وقوله تعالى : ﴿ وَإِيَّىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾ ﴾ (سورة البقرة: ٤٠) .

والمفعول حين يتقدم على الفعل في الجملة فهو صيغة قصر، أي ارهبوني وحدي.والخوف الذي يصيب الإنسان على نوعين أو قسمين:

الأول: خوف فطري لا يُحاسب الإنسان عليه مثل الخوف من الكهرباء أو الثعبان أو من تربص أحدهم الأذى به عيانا، مثل ما جاء في خوف موسى وإبراهيم عليهما السلام في القرآن الكريم:

قال تعالى في حق موسى عليه السلام:

﴿ وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَآنٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ ۚ يَٰمُوسَىٰٓ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ ۖ إِنَّكَ مِنَ ٱلْءَامِنِينَ ﴿٣١﴾ ﴾ (القصص: ٣١).

وقوله تعالى في حق إبراهيم عليه السلام :

﴿ فَقَرَّبَهُۥٓ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٧﴾ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً ۖ قَالُوا۟ لَا تَخَفْ ۖ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَٰمٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ ﴾

(٢٧-٢٨الذاريات)

والنوع الثاني: هو ما يتصل بالإيمان من ناحية قوته وضعفه، ومثال على ذلك من لا يبالي أن يحلف بالله كذباً، ولكنه يخاف أن يحلف كذباً بوليه الذي يقدسه لخوفه من نزول العقاب به، فأولياء الله لا نخافهم أبداً لذواتهم، إنما نخاف من غضب الله لهم إن آذيناهم أو آتيناهم بسوء .فالله وحده هو الذي يُخشى منه، ويُخاف منه

بالغيب لمقامه وجلاله وحقه على عباده، وكل ما هو موجود خلقٌ من خلقهِ ، وعبدٌ من عبيده، ولا يملكون نفعا ولا ضرا إلا بإذنه.والخوف من الناس كذلك عند قول الحق أو مخالفتهم لباطلهم أو إنكار المنكر فيهم هو من ضعف الإيمان أو عدم كماله ، فإنْ صرف المؤمن بعضاً من هذا الخوف لغير الله كان فيه من ضعف التوحيد والإيمان وتقوى الله بقدره .

وفي مثل هذا جاء الحديث عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، عن رسول اللهﷺ: أنه قال :

(لا يحقر أحدكم نفسه ! قالوا يا رسول الله ! كيف يحقر أحدنا نفسه ؟ قال يرى أمرا لله عليه فيه مقال، ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل له يوم القيامة ما منعك أن تقول في كذا وكذا ؟ فيقول خشية الناس، فيقول الله عز وجل فإياي كنت أحق أن تخشى).[1]

فالله أحق بالخشية من غيره من الناس مهما كان سلطانه، بل إن غيره لا يقوم بنفسه إلا بالله، وليس له من السلطان شيء إلا بإرادة الله.

ومن عداوة الشيطان أنه يُخوف المؤمنين لئلا يأمروا بمعروف أو ينهوا عن منكر،

(١) رواه ابن ماجه (كتاب الفتن- باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- حديث رقم ٤٠٠٦) قال فيه الحافظ عبد العظيم المنذري في "الترغيب والترهيب من الحديث الشريف" (٣ / ١٦٠) (رواه ابن ماجه ورواته ثقات).

وأخبر تعالى أن من مكائد الشيطان بث الخوف في قلوب الناس من الظلمة والعصاة، فنهانا أن نخافهم بَلْ نخافه وحده، وهذا دليل على الإيمان. يقول الله تعالى في ذلك:

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾ ﴾

(آل عمران-١٧٥)

فكلما قوي إيمان العبد وتقواه لله زال خوفه فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وكلما ضعف إيمان العبد وتقواه قوي خوفه في أن يأمر بمعروف وأن ينهى عن منكر.

وهذا الخوف إن استجاب المؤمن له فترك الحق الواجب عليه كان فيه من ضعف الإيمان وضعف تقوى الله بحسب ذلك، وكان سكوته إثما عليه ما لم يكن مكرها على ذلك.

وإذا أخلص المؤمن خوفه لله وحده، ونزع من قلبه كل خوف من البشر حيا وميتا، فذلك الخوف هو الذي يدرك به العبدُ الأمان في الآخرة، يقول الله تعالى في حديثه القدسي:

(وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين وأمنين، إذا خافني في الدنيا أمنته يوم القيامة، وإذا أمنني في الدنيا أخفته يوم القيامة).[1] .

فالخوف من الله عاقبته الأمن، وعدم الخوف من الله يعني الخوف العظيم يوم

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه ،حديث رقم ٦٤٠. قال شعيب الأرنؤوط : إسناده حسن

القيامة مع خوف الإنسان في الدنيا من عوارضها. فمن خاف الله وحده حق مخافته خافه كل شيء، ومن لم يخف من الله أخافه الله من كل شيء.

فلذلك يقول الله عز وجل:

﴿ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا ۚ فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ ﴾ (الأنعام)

ولن يبلغ أحد مأمنه من الله، ولا الاطمئنان في الدنيا إلا بالخوف منه سبحانه، والفرار إليه سبحانه وتعالى، يقول الله تعالى:

﴿ فَفِرُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۖ إِنِّى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾ ﴾. (الذاريات: 50)

فالخوف من الله هو سوط يسوق النفس إلى الله والدار الآخرة، حتى لا تترك العمل اتكالاً على عفو الله ورحمته.

وعلى قدر العلم والمعرفة بالله يكون الخوف والخشية منه، ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ (فاطر: ٢٨). ولذلك فمن أراد أن يزداد خشية لله فعليه أن يطلب العلم ليزداد معرفته بالله وبحقه عليه.

جاء في الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : **(والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا، ولبكيتم كثير، وما تلذذتم بالنساء على الفرش ، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله)**[1] .

(١) رواه الترمذي. حديث رقم٢٣١٢ (حسنه الألباني في السلسلة الصحية رقم ١٧٢٢).

فمخافة الله هي رأس العلم؛ ولذلك كان رسول الله أخوف الناس لله، وكان إذا قام إلى الصلاة يُسمع لصوت صدره أزيز كأزيز المرجل. ولما سأله أبو بكر الصديق: يا رسول الله قد شبت!؟، قال: شيبتني هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت.وفي رواية – شيبتني هود وأخواتها.[1] .

والمؤمن مع خوفه من جلال الله وعظيم سلطانه يخاف الله أيضا خوف المقترف للذنب من العقوبة، وليس خوفا من ظالم، فما الله بظلام للعبيد، بل سبحانه يجزي بالسيئة مثلها، ويضاعف الحسنة عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف، والله يضاعف فوق ذلك لمن يشاء.

﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾ (آل عمران: ٣٠) .

والمؤمن مع خوفه من جلال الله وعظيم سلطانه يخشى أن يَردَّ الله عليه أعماله بما يعلمه سبحانه عنه ومن ذنوبه. وهو يسأل الله من فضله وكرمه أن يقبل منه أعماله وصدقاته ولا يردها عليه.

سألت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها النبي – صلى الله عليه وسلم – عن قول الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَواْ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ (المؤمنون: من الآية ٦٠)،

أهم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال:

(١) السلسة الصحيحة للألباني رقم (٩٥٥)

لا يا بنت الصديق، ولكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون، وهم يخافون أن لا تقبل منهم، أولئك يسارعون في الخيرات وهم لها سابقون.(١)

قال الحسن : عملوا والله بالطاعات واجتهدوا فيها وخافوا أن ترد عليهم، إن المؤمن جمع إحسانا وخشية، والمنافق جمع إساءة وأمنا.

ومن صِدْق الخوف من الله بكاء المؤمن من خشية الله من أن يعاقبه على ذنوبه أو تقصيره في حقه، وإذا وصل العبد بخوفه من الله ذلك المقام حرّم الله عليه النار.

عن أبي هريرة – رضي اللهَّ عنه – قال : قال رسول اللهَّ صلّى الله عليه وسلم :

لا يلِجُ النارَ رجلٌ بكى مِن خشيةِ الله حتى يعود اللبنُ في الضَّرع، ولا يجتمع غبارٌ في سبِيلِ اللهَّ ودخان جهنم.(٢) .

وأخيرا؛ فليس المقصود بالخوف من الله هو انقطاع الرجاء فيه سبحانه وتعالى، فإن المؤمن يعيش بين جناحي الخوف من الله والرجاء في الله، ولا يستقيم طيران الطائر حتى يستقيم كلا الجناحين ويقويان ويتوازنان، فإن فقد أحدَهما لم يستطع أن يقوم من مكانه ولم ينفعه الآخر، وإن استقام كلا الجناحين وتوازنا كانا سبيلاه إلى القرب من الله، وسبيلاه إلى جنة المأوى بفضل من الله تعالى ورحمته.

---

(١) رواه الترمذي (رقم/ ٣١٧٥) وصححه ابن كثير في " تفسير القرآن العظيم " (١/ ١٧٦)

(٢) رواه النسائي (٣١٠٨) . وصححه الألباني

خوف الصالحين

لو تأملت أحوال الصحابة والسلف والصالحين من هذه الأمة لوجدتهم في غاية العمل مع الخوف، وقد رُوي عنهم أحوال عجيبة تدل على مدى خوفهم وخشيتهم لله عز وجل مع شدة اجتهادهم وتعبدهم.

وقد يظن ظان أو هكذا يفكر الكثيرون أن ذلك كان ورعا زائدا منهم وزيادة في التقوى والصلاح، ولكن الأمر ليس كذلك أبدا، بل لأنهم عرفوا الله أكثر من غيرهم وعرفوا جلاله وعظمته، وأيقنوا بشديد عقابه وقوة بطشه، وأيقنوا بهول النار وما فيها من عذاب عظيم، وعرفوا أن لا ضمان في النجاة من النار إلا برحمة الله، ولا ضمان لدخول الجنة إلا بعد أن يخلِّفوا بابها وراءهم. وأخذوا العبرة مما حدث لإبليس، فخافوا من مكر الله بهم ولم يأمنوا الطرد بعد القرب والرفعة، وأخذوا العظة من السامري الذي أنعم الله عليه فبَصّره ما لم يُبصِّرهُ غيره، فبدلا من أن يزداد إيمانا افتُتن فضَلَّ وكفر بالله عز وجل وأضل الناس معه.

والمؤمن يستعظم ذنوبه في حق الله، وهذا حق لجلال الله سبحانه وتعالى، ولكن الله يغفر الذنب لعبده المؤمن حين يستعظم العبدُ ذنبه، ويرجو رحمة ربه، ويظن أن عفو الله أعظم من ذنوبه كلها. ولكن المؤمن يظل وجِلا خائفا من أن يأخذه الله بجرمه ويعاقبه على ذنبه.

وأما الفاجر الغافل فيستصغر ما يقترف في جنب الله من معاصٍ وذنوب، ويتكل

على رحمة الله، ويغفل عن يوم يسأله الله فيه عن ذنبه، ولا يبالي بأن الله قد يأخذه بذنبه ويعاقبه عليه، ولا يفكر في شديد عذابه، وفي كل ذلك استهانة بجلال الله سبحانه وتعالى عما يشركون.

عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: إنّ المؤمن يرى ذنوبه كأنه في أصل جبلٍ يخاف أن يقع عليه، وإنَّ الفاجر يرى ذنوبه كذبابٍ وقع على أنفه قال به هكذا.(١).

وخير الصالحين بعد رسول الله هم صحابة رسول الله صلى الله عليهم وسلم، وعلى رأسهم العشرة المبشّرون منهم بالجنة.

والسؤال هنا لماذا يخاف ويبكي ويشتد بكاؤه من بشّره رسول الله بالجنة،

ونحن ليس لنا من ذلك شيء، ومع ذلك نحيا وكأننا قد سبق لنا من الله عهد بدخولها؟!.

أكان هذا لشدة علمهم بجلال الله وحقه، أم لغفلتنا وقلة علمنا، أم كلاهما معا ؟

هذا الصدِّيق رضي الله عنه يقول : وددت أني شعرة في جنب عبد مؤمن

، وكان أسيفاً كثير البكاء، وكان يقول : " ابكوا فان لم تبكوا فتباكوا " ، وكان إذا قام إلى الصلاة كأنه عود من خشية الله عز وجل.

ومر رضي الله عنه على طيرٍ قد وقع على شجرة فقال: طُوبى لك يا طيرُ، تطير فتقع على الشجر ثم تأكل من الثمر ثم تطير ليس عليك حسابٌ ولا عذاب، يا

(١) رواه الترمذي – رقم ٢٤٩٧ – صححه الألباني

ليتني كُنت مثلك؛ والله لوددتُ أني كنتُ شجرةً إلى جانبِ الطريق، فمر عليَّ بعير فأخذني فأدخلني فاه فلاكني ثم إزدردني ثم أخرجني بعراً ولم أكن بشراً!.

وأما عمر رضي الله عنه فكان في وجهه خطان أسودان من البكاء. وسقط مغشياً عليه لما سمع آية من القرآن، فعاده الناس أياماً لا يدرون ما به، وما هو إلا الخوف..

وقال رضي الله عنه ذات مرة "يا ليت أمي لم تلدني"، - ويقول أيضا: " لو نادى منادٍ من السماء يا أيها الناس إنكم داخلون الجنة كلكم إلا واحداً لخفت أن أكون أنا هو! ".

قال عبدالله بن عمر: كان رأس عمر على فخذي في مرضه الذي مات فيه، فقال : ضع رأسي على الأرض، فقلت: ما عليك كان على الأرض أو كان على فخذي ؟! فقال: لا أم لك، ضعه على الأرض. فقال عبدالله: فوضعته على الأرض، فقال: ويلي وويل أمي إن لم يرحمني ربي عز و جل .

كان عثمان بن عفان رضي الله عنه إذا وقف على القبر يبكى حتى تبتل لحيته، ويقول: " لو أنني بين الجنة والنار لا أدري إلى أيتهما يؤمر بي، لاخترت أن أكون رمادا قبل أن أعلم إلى أيتهما أصير " .

وكان رضي الله عنه يقول: " وددت لو أنني لو مت لم أبعث " وهو الذي كان يقطع الليل تسبيحاً وقرآناً ويتخرق مصحفه من كثرة ما قرأ به، وقد مات رضي الله عنه ودمه على المصحف شهيداً.

أما علي رضي الله عنه فيصفه ضرار بن ضمرة فيقول: رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله، وغارت نجومه ؛ قابضاً على لحيته يتململ تململ السليم،ويبكي بكاء الحزين، وهو يقول: **إليك عنّي يا دنيا، غرِّي غيري، إليَّ تعرّضت أم إليَّ تشوّقت ؟ هيهات هيهات ! فإنّي قد طلقتك ثلاثاً لا رجعة لي فيك؛ فعمرك قصير، وخطرك كبير، وعيشك حقير.**

يقول أبو عبيدة رضي الله عنه: " وددت لو كنت كبشاً فذبحني أهلي وأكلوا لحمي وحسوا مرقي ".

وأما أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها فتقول: " يا ليتني كنت نسياً منسياً ".

وقرأت في صلاتها قوله تعالى: ﴿ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ ﴾ (الطور:٢٧) فتبكي وتبكي.

كان ابن عباس رضي الله عنه تحت عينيه خطّان كالشراكين الباليين أخاديد من الدموع.

وكان عمران بن حصين رضي الله عنه يقول: **يا ليتني كنت رماداً تذروه الرياح.**

وغشي على أبي هريرة رضي الله عنه ثلاث مرات وهو يحدث بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أول ثلاث تسعّر بهم النار يوم القيامة..

وبكى أبو هريرة رضي الله عنه في مرضه فقيل له ما يبكيك فقال: أما إني لا أبكي على دنياكم هذه، ولكني أبكي على بعد سفري وقلة زادي، وإني أصبحت في صعودٍ مهبط على جنة أو نار ولا أدري أيهما يأخذ بي.

قال أبو الدرداء رضي الله عنه وهو يحتضر : ألا رجل يعمل لمثل مصرعي هذا ألا رجل يعمل لمثل ساعتي هذه؟ ألا رجل يعمل لمثل يومي هذا؟ ثم بكى فقالت له امرأته: أتبكي وقد صاحبت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: ومالي لا أبكي ولا أدري علام أهجم من ذنوبي.

أما الصحابي الجليل شداد بن أوس رضي الله عنه كان إذا أوى إلى فراشه لا يستطيع النوم، ويقول: اللهم إن جهنم لا تدعني أنام..

قرأ تميم الداري ليلةً سورة الجاثية، فلما أتى على قول الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الجاثية: ٢١) جعل يرددها ويبكى حتى أصبح.

وكان عمر بن عبد العزيز يبكي ويبكي حتى تغلبه عيناه ثم ينام ..

وكان علي زين العابدين إذا توضأ اصفر وجهه، ولما يسأل عن ذلك يقول: أتدرون بين يدي من أريد أن أقف؟

ويقول عبد الرحمن بن مهدي -شيخ الإمام أحمد-: ما صاحبت رجلاً في الناس أرق من سفيان، كان يقوم من نومه فزعاً مرعوباً ويقول: اللهم إنك عالم بحاجتي غير معلم، وإن حاجة سفيان أن تغفر له ذنبه، اللهم لو كان لي عذر في التخلي عن الناس ما أقمت مع الناس طرفة عين.

وكان الحسن البصري إذا بكى فكأن النار لم تخلق إلا له...

قرأ زرارة بن أوفى قاضي البصرة قول الله عز وجل: ﴿ فَإِذَا نُقِرَ فِى ٱلنَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَٰلِكَ

يَوۡمَئِذٖ يَوۡمٌ عَسِيرٌ ۝٩ ﴾ (المدثر:٨-٩) في صلاة الصبح فخرجت روحه.

عن جعفر بن سليمان قال: سمعتُ مالك بن دينار يقول: لو استطعت أن لا أنام لم أنم مخافة أن ينزل بي العذاب وأنا نائم، ولو وجدتُ أعواناً لفرقتهم ينادون في سائر الدنيا كلها يا أيها الناس النار النار.

بكي إبراهيم النخغي في مرضهِ فقالوا له: يا أبا عمران ما يبكيك؟ قال: وكيف لا أبكي وأنا أنتظر رسولاً من ربي يبشرني إما بهذه وإما بهذهِ.

أوَ تظن أخي الكريم وأختي الكريمة أن هؤلاء الصالحين قد اشتد خوفهم من الله وعذابه لأن أنفسهم قد هولت لهم الدار الآخرة؟! أم أنهم أيقنوا بهول المطلع وهول المحشر، وعظمة الوقوف بين يدي الله سبحانه وتعالى، وأيقنوا بالنار وشدة عذابها وطول البقاء فيها؟!.

وما ورد من أحوال الصالحين وخوفهم من الله فكثير، ولكن حسبنا ما ذكرنا، فاستدرك نفسك يا عبد الله، وحاسب نفسك قبل أن تحاسب، واستفق من غفلتك ولعبك في الحياة الدنيا وتأمل قول إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيّ :

ينبغي لِمن لم يحزن أن يخاف ألا يَكون من أهل الجنة، لأنهم قالوا: ﴿ وَقَالُواْ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَذۡهَبَ عَنَّا ٱلۡحَزَنَۖ ﴾ (فاطر: ٣٤)، وينبغي لِمن لم يُشفِق أن يخاف ألا يكون من أهل الجنة، لأنهم قالوا :

﴿ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ۝٢٦ ﴾ (الطور: ٢٦) .

العمل بالتنزيل

كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ.

إن وجوب العمل بما جاء في كتاب الله عز وجل من أوامر ونواهٍ هو الغاية التي تنتهي إليها التقوى، فتقوى الله حقا هو أن يتبع المرء ما أنزله الله في كتابه حق الاتباع ويعتصم به، فلا يحيد عنه أبدا ولا يزيد لا يزيغ، فإن حادَ وزاغ أو زاد وابتدع في الدين فلا معنى حينئذ لمشاعر الخوف من الموت أو يوم الحساب.

يقول الله تعالى:

﴿ وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ (الأنعام: ١٥٣).

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُورًا مُّبِينًا ﴿١٧٤﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾ ﴾ (١٧٥) (النساء).

لذلك فليس هناك معنى للتقوى مهما ظهر على العبد من مشاعر الخوف إذا خالف العبد كتاب الله عز وجل، وإن أول دليل على التقوى هو العمل بما جاء في كتاب الله والتزام أوامره ونواهيه كلها.

ومن وجوب العمل بكتاب الله وجوب العمل بما جاء عن رسول الله صلى الله

عليه وسلم. يقول الله تعالى:

﴿... وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٧﴾ ﴾ .(الحشر-من الآية ٧).

وهذا أمر الله في كتابه العزيز باتباع أوامر النبي صلى الله عليه وسلم كلها واجتناب نواهيه كلها، فمن خالف أمرا أو نهيا لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقد خالف ما جاء في كتاب الله عز وجل، ومن خالف ما جاء في كتاب الله عز وجل فليس من التقوى في شيء...

قال تعالى:

﴿ لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾ ﴾ (الأحزاب: ٢١)

فهو الأسوة والقدوة لكل مسلم يرجو الله والدار الآخرة، ومن لا يرجو الله والدار الآخرة فهو أبعد الناس عن التقوى.

ويقول الله تعالى:

﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾ ﴾. (آل عمران: ٣١)

فصدق محبة العبد لله هو في اتباع رسوله الكريم، ومحبة الله للعبد لا تكون إلا باتباع رسوله واتباع سنته، ولذلك لا قربى للعبد من الله إلا باتباع رسوله صلى الله عليه وسلم، وكل من تقرب إلى الله بغير ما جاء به رسول الله صلى الله عليه

وسلم في العبادة أو الذكر فقد ابتدع في الدين، وخالف التنزيل، ولو كانت أعمالا كالجبال وذكرا لله لا ينقطع بالليل والنهار، فكل ذلك مردود عليه، غير مقبول من رب العالمين، ولا يُعد صاحبُه في المتقين شيئا، بل يُعد في الضالين الذين حق عليهم العذاب.

ويقول الله تعالى:

﴿ وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمۡ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ إِنۡ هُوَ إِلَّا وَحۡيٞ يُوحَىٰ ۝٤ ﴾ (النجم:١-٤)

والوحي ثلاثة أنواع قرآن منزل، وأحاديث قدسية رويت على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الله عز وجل، ثم كل كلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو من الوحي، لأنه صلى الله عليه وسلم كما قال الله تعالى عنه: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلۡهَوَىٰٓ ۝٣ ﴾ (النجم: ٣).

عن عبد اللهَّ بن عمرو قال: كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول اللهَّ صلى اللهَّ عليه وسلم أريد حفظه فنهتْني قريش وقالوا أتكتب كل شيء تسمعه ورسول اللهَّ صلى الله عليه وسلم بشر يتكلم في الغضب والرضا، فأمسكتُ عن الكتاب فذكرت ذلك لرسول اللهَّ صلى اللهَّ عليه وسلم فأَوْمَأَ بأُصبُعِهِ إلى فِيهِ فقال:**اكتبْ؛ فوالذي نفسي بيدهِ ما يخرج منه إلا حق.**(1)

كل تلك الآيات والأحاديث لتؤكد أن ما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) سنن أبي داوود-كتاب العلم رقم (٣٦٤٦)وصححه الألباني .

هو من طاعة الله، ومثل ما جاء في كتاب الله تعالى، ومع ذلك تجد اليوم ممن يدّعون دينا وإسلاما من يريد أن يكتفي بأوامر الله ونواهيه التي جاءت في كتابه فقط، ولا يأخذ بالسنة ولا يعتبرها ملزمة له وللناس، وفي مثل هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

ألا إني أوتيت الكتاب ومثله معه، ألا يوشك رجل شبعان على أريكته يقول عليكم بهذا القرآن، فما وجدتم فيه من حلال فأحلوه، وما وجدتم فيه من حرام فحرموه... [(1)].

وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم (رجل شبعان) هو كناية عن الحماقة الملازمة للتنعم والغرور بالمال أو الجاه، وقوله صلى الله عليه وسلم (على أريكته) أراد بها أصحاب الترف؛ يجلس أحدهم مرتاحا على أريكته وهو يظن أن التكلم في العلم سهلا، فيتكلم بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير، فيَضل ويُضل من يسمع له.

فالعمل بكتاب الله عز وجل وبسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم، واتباع أوامر الكتاب والسنة، والانتهاء عن ما نهى عنه الله ورسوله هو مدار التقوى، ومن خرج عنهما فقد ضل وزاغ عن الصراط المستقيم، وليس من صفات المتقين في شيء أبدا.

وإن أعظم ما جاء به الكتاب وجــاءت به السنة هو توحــيد الله عز وجــل وألا

(١) سنن أبي داوود – رقم (٤٦٠٤)

يُشركَ بالله شيئا. فتوحيد الله هو الباب الوحيد الذي يدخل منه العبد على الله سبحانه وتعالى، وليس هناك باب غيره.

وتوحيد الله هو أصل الإيمان، فإن فقده العبد لم ينفعه بعد ذلك عمل، بل إن جَرحا يسيرا وشائبة يسيرة في التوحيد (وليس في التوحيد شيء يسير) لا تَجبره أي عبادة أخرى مهما علا قدرها وفضلها في الدين، ولا تُجبر بأي أعمال صالحة أخرى مهما كثرت ولو كانت كالجبال، إلا أن يتوب العبد منها ويُصلح مِن قلبه ما فسد فيه من توحيده لله عز وجل. وهذا ما بينه الله سبحانه في قوله تعالى:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ (النساء:٤٨).

وتوحيد الله ليست مجرد كلمات تنطقها الشفاه، أو شهادة ينطق بها اللسان، بل لها حقوق وأركان يجب الوفاء بها ليصح توحيد العبد لله تعالى، ولا يكمل توحيد العبد حتى يستكملها كلها، فإن ضعف أو شاب ركن منها كان فيه من الشرك بقدر ذلك، فإن فقد منها ركنا فقدا كاملا لم يصح توحيده لله ودخل في عداد المشركين.

ولذلك فأول وأهم ما يتنبه له العبد في تحصيل التقوى هو تحصيل التوحيد علما وقلبا وعملا، فإنه لا يصح له عمل إلا من بعد التوحيد. وعندما نقول تحصيل التوحيد فإننا نعني بذلك تحصيل كافة أركانه في قلب العبد بداية من الإخلاص والولاء والبراء إلى التوكل والإنابة إلى الله وغير ذلك من أركان التوحيد.

وكثير من الناس بل والدعاة قد غفلوا في أيامنا هذه عن تحصيل التوحيد في قلوبهم وأعمالهم وفي دعوتهم، وانشغلوا عنها بغيرها من الأعمال الفاضلة، أو بإذكاء الهوية الإسلامية في أنفس الناس، أو بتحرير المقدسات وكل ذلك خير عظيم ولا غنى عنه، ولكن تحصيل التوحيد مقدم على كل ذلك، لأن نقصا واحدا أو شائبة فيه كما قلنا لا يجبره كل هذا، فما الحال لو وصل حال التوحيد في بلاد المسلمين إلى درجة يرثى لها كما نرى اليوم.

بل لا يفقه أكثر الناس اليوم وكثير من الدعاة أن كل فسادٍ نراه أمام أعيننا يرجع إلى شائبة أو ضعف قد أصاب الناس والأمة في ركن من أركان التوحيد، وعلى سبيل المثال فإن ضعفاً في ركن التوحيد بأن الله هو الذي ينفع وهو الذي يضر هو الذي ينتج عنه المداهنة والنفاق والغش في المجتمع. والمداهنة والنفاق هما أصل كل فساد في المؤسسات والأعمال كلها.

وعندما أقول بأن عامة الناس قد أصابتهم شائبة في كلمة التوحيد إنما أعني بذلك هو عدم إخلاص وصفاء توحيدهم لله سبحانه وتعالى من كل شائبة، وليس المقصود هو خروجهم من الإسلام وإشراكهم بالله الشرك الأكبر، وإن كان بعضهم قد يصل به الحال إلى الوقوع فيه.

والمقصود أن يجعل المؤمن أول همه في تحصيل التقوى هو تحصيل كلمة التوحيد بكافة أركانها ولوازمها في قلبه وعمله بإخلاص تام، ويحرص على تحصيلها وتعلمها والعلم بها، ولا ينشغل عنها أبدا بأي عبادة أخرى أو بفضائل الأعمال.

ثم يأتي بعد التوحيد تحصيل الفرائض التي افترضها الله في كتابه المنزل أو على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم، وليس أحب إلى الله وأفضل الأعمال عنده على الإطلاق بعد التوحيد التي يتقرب بها العبد إلى الله من إقامة ما افترضه الله عليه. وفي الحديث القدسي فيما يرويه الرسول صلى الله عليه وسلم عن رب العزة أنه قال: **وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه**..[1] .

فالتقصير في الفرائض التي أمر الله بها دليل على ضعف التقوى في قلب المسلم، وقد قلنا أن النجاة والفوز كله في أن يدخل المسلم في عداد المتقين. فإن أراد المسلم أن يدخل معهم فعليه أن يقوم بالفرائض التي أمر الله بها في كتابه المنزل وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم.

والفرائض التي أمر الله بها ليست فقط الصلاة والزكاة والصيام والحج، بل كل ما أمر الله به وجعله واجبا مثل الأمانة في العمل، والصدق في الحديث فإنه يعد من الفرائض التي أمر الله بها. فأمانة المسلم في عمله أحب إلى الله ممن يقصرون في أعمالهم ويأتون كثيرا من النوافل والصدقات.

ثم يأتي-بعد التوحيد وأداء الفرائض- اجتناب ما حرم الله عز وجل، وما نهى عنه سبحانه في كتابه وعلى لسان رسوله صلى الله عليه وسلم علانية وسرا. وقد قال جميع العلماء أن اجتناب ما حرم الله أحب إلى الله من كل فضائل الأعمال، لأن اجتناب ما حرمه الله يدخل أيضا فيما افترضه الله على عباده. ولأن اجتناب

(١) رواه البخاري-كتاب الرقاق-باب التواضع- رقم (٦٥٠٢)

ما حرمه الله هو علامةٌ لخشية الله في نفس العبد، ومقياسٌ لصدق خوفِ العبد من ربه عز وجل.

فعَنِ ثوبان عن النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم أَنَّهُ قَالَ :

لأَعلَمَنَّ أَقواما من أُمتي يأْتون يوم القيامة بحسنات أَمثال جبال تهامة بِيضًا فيجعلها اللهَّ عز وجل هباءً منثورًا قال ثوبَان : يا رسول اللهَّ صفهم لنا، جلّهِم لنا أَنْ لا نكُون منهم ونحن لا نعلم، قال : أَما إِنهمْ إخوانُكُم ومن جلدتِكم ويأْخذون من الليل كما تأْخذون ولكنهم أَقوام إذا خلوا بمحارم اللهَّ انتهكوها.(١)

فما حرمه الله ورسوله يجب اجتنابه كلية بلا تساهل أو تخاذل، فليس فيما حرمه الله شيء مبني على الاستطاعة، لأن الله لم يحرم على عباده شيئا إلا وهو يعلم أنهم مستطيعون لتركه، بخلاف ما أمر الله به من الفرائض فهو مبني على الاستطاعة في أكثر الأحوال؛ فالصلاة يأتيها المرء بقدر استطاعته لها، فإن كان مريضا أتى منها على حسب حالته في مرضه، حتى يصل الأمر أن يصلي المسلم بطرف عينه إن شلت جميع أركانه، والزكاة لا تكون إلا بعد النصاب، والصيام قد رخص الله عز وجل فيه الفطر للمريض فيقضيه بعد شفائه، أو يقضي عن كل يوم إطعام مسكين إن كان مرضه مرضا مزمنا، والحج لا يكون إلا عند الاستطاعة.

وأنْ يأتي المرءُ من أوامر الله ورسوله قدر استطاعته لا يعني أن يخادع المرءُ نفسه في نفسه ليسول لها ترك شيء مما افترضه الله عليه، أو يقصر فيه، فالله عليم بذات

(١) رواه بن ماجه- وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم (٢٣٤٦)

الصدور ولا تخفى عليه خافية.

وأما ما حرمه الله فيجب اجتنابه تماما مثل شرب الخمر والميسر، فلا يكون شيء منهما حلالا أبدا ولو كان يسيرا أو صغيرا. ومثلُ ذلك العري والسفور للمرأة، فما حرمه الله من كشف المرأة لشعرها مثلا لا يجوز لها كشف شيء منه ولو بعض شعيرات من ناصيتها، وهكذا في كل ما ثبتت حرمته اتفاقا.

وفي ذلك روى أبو هريرة رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:

ما نهيتكم عنه ، فاجتنبوه ، وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم، فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم.[1]

ومن أعظم ما يجب اجتنابه وأخطره على المسلم هو المال الحرام والمطعم الحرام والملبس الحرام فكل لحم نبت من سحت فالنار أولى به ، ويكفي فيهم أنهم يمنعون استجابة الدعاء من رب العالمين فليحذر المسلم أشد الحذر من أي مال حرام يدخل عليه بيته أو في ماله فقد يفسده كله ومما قد يكون مدخلا للحرام في مال المسلم هو تضييعه لعمله أو لجزء من عمله الذي يتقاضى عليه راتبا فليتق الله فيه .

(١) رواه مسلم-كتاب الفضائل-باب توقير النبي- شرح النووي على مسلم حديث رقم (١٣٣٧)

ثم يأتي بعد التوحيد وأداء الفرائض واجتناب ما نهى الله عنه حسن معاملة الناس وعدم الإساءة إليهم لقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ ١٩٩ ﴾

(الأعراف :١٩٩).

وللحديث الذي جاء فيه أنه لما قيل للنبي صلى الله عليهم وسلم يا رسول الله : إن فلانة تقوم الليل وتصوم النهار وتفعل وتصدّق، و تؤذي جيرانها بلسانها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:**لا خير فيها، هي من أهل النار**، قال: وفلانة تصلي المكتوبة وتصدق بأثوار ولا تؤذي أحدا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: **هي من أهل الجنة**.(١)

وكما جاء في حديث آخر رواه البخاري: **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه** .(٢)

فكف الأذى عن الناس أصل في دين المسلم وإيمانه، وأكثر الأذى يكون من اللسان لعدم مبالاة الناس واستهانتهم بما ينطقون به من كلام يؤذي الآخرين أو يسيء إليهم، وهؤلاء قد يكونوا من المفلسين يوم القيامة. عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(١) الأدب المفرد للبخاري رقم ٨٨) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة رقم ٣٦٩/ ١

(٢) رواه البخاري في صحيحة رقم ٦٤٨٤

أتدرون ما المفلس؟ قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع فقال: إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة، ويأتي قد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا و ضرب هذا فيعطى هذا من حسناته، وهذا من حسناته فإن فنيت حسناته قبل أن يُقضي ما عليه أُخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار.(١) .

ثم يأتي بعد التوحيد، وأداء الفرائض، واجتناب ما حرم الله عز وجل، وحسن معاملة الناس، أمر بمعروف ونهي عن منكر بقدر المستطاع، دون أن يتعدى ذلك إلى منكر أشد منه، أو التعدي على ما هو من شأن ولي الأمر أن يقيمه بنفسه. وأقل ذلك أن يكره المسلم المنكر بقلبه ويفارقه ويبتعد عنه دون إنكار باللسان أو تغيير باليد.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : **من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان.** (2) .

فالأمر بالمعرف والنهي عن المنكر واجب على كل مسلم فيما يراه وبما له به علم وإن كان يسيرا حتى لا ينتشر الفساد في الأرض وينزوي الخير عن الناس، وليس أدل على ذلك برهانا من أن أهل الفساد يدعون إلى فسادهم ويحبون انتشاره

(١) رواه مسلم- في صحيحة رقم ٢٥٨١.

(٢) رواه مسلم في صحيحه رقم ٤٩.

تلقائيا من عند أنفسهم، فكيف يَظنُ بأهل الإيمان أنفسهم وهم لا يأبهون بمنكر يرونه ولا يأمرون بمعروف بينهم، ولقد لعن الله أمة من أهل الكتاب لفعلهم ذلك فقال فيهم سبحانه:

﴿ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾

(المائدة: ٧٩)

روى ابن مسعود عن رسول الله –صلى الله عليه وسلم– أنه قال :

إن أول ما دخل النقص على بني إسرائيل كان الرجل يلقى الرجل فيقول : يا هذا اتق الله ودع ما تصنع فإنه لا يحل لك ، ثم يلقاه من الغد فلا يمنعه ذلك أن يكون أكيله وشريبه وقعيده ، فلما فعلوا ذلك ضرب الله قلوب بعضهم ببعض ثم قال: "لُعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم إلى قوله فاسقون ثم قال : كلا والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يدي الظالم ولتأطرنه على الحق أطرا ولتقصرنه على الحق قصرا."[1] .

فالعمل بالتنزيل يعني إقامة التوحيد كاملا في قلب العبد ولا يُقبل فيه نقصان أبدا، فهو أعظم ما أُنزل في الكتاب وما افترضه الله على عباده،...

والعمل بالتنزيل يعني إقامة الفرائض لأنها أول ما ينبغي التقرب به إلى الله قبل النوافل، والنافلة لا تقبل حتى تؤدى الفريضة،...

(١) سنن أبي داوود–الملاحم– رقم(٤٣٣٦)–عمدة التفسير لأحمد شاكر–رقم ٧١٥/ ١

والعمل بالتنزيل يعني اجتناب العبد لكل ما حرم الله عليه علانية وسرا ، لأنه علامةُ صدقٍ على خشية الله في نفس العبد،...

والعمل بالتنزيل يعني حسن معاملة الناس وعدم الإساءة إليهم فلا خير فيمن يؤذي الناس،...

والعمل بالتنزيل يعني أن يكون المرء إيجابيا في المجتمع؛ يأمر بمعروف وينهى عن المنكر بحسب استطاعته وبقدر علمه، فإن لم يستطع هَجَرَ المنكر وكَرِهه بقلبه وذلك أضعف الإيمان،...

الرضا بالقليل

ليس الرضا بالقليل كما يفهم كثير من الناس أنه الرضا بالفقر، كيف ذلك!! وقد جاء في الأثر عن علي بن أبي طالب أنه قال "لو كان الفقر رجلا لقتلته". وأعظم من ذلك ما قاله رسول الله صلى الله عليه وسلم في دعائه:**"اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر، وعذاب القبر"**.[1]

ولكن المقصود بالرضا بالقليل هو أن تعمل وتبني وتُعمّر في الأرض بمهنتك أو بتجارتك، وأنت راض بالقليل من متاع الدنيا، زاهد في زخرفها، وراض بما يكفيك من المال، لأنك تعمل لله ونفع المسلمين. فليس همك جمع المال لنفسك واكتناز أعظم ما تستطيع منه، بل ترضى بالقليل منه الذي يكفي حاجتك ولا تبتئس بذلك زهدا في الدنيا.

فلو أن رجلا يعمل بالتجارة، فهو يعمل وينمي تجارته، كما فعل بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففي ذلك منافع للناس كثيرة لا غنى عنها، ولكن لا يكن همه من تجارته كسب أكثر ما يستطيعه من الربح طمعا في المال وحبا فيه وجمعا له. بل يرضى بالربح الذي تقوم به تجارته أو مهنته ويكفي حاجته منه رحمة بالناس وابتغاءً لمرضاة الله عز وجل ورضا بالقليل، كما يكون

(١) رواه النسائي كتاب السهو « باب التعوذ في دبر الصلاة رقم ١٣٤٧.

رحيما بالعمال فيعطيهم أجرا كريما أو مجزيا.

وهذا ما لا نراه اليوم؛ فأكثر التجار يود أحدهم لو ربح أضعاف أضعاف ثمن سلعته، لا يمنعه من ذلك إلا خوفه من انصراف الناس عنه إلى غيره، ومن يرخص سلعته فهو يرخصها للمنافسة الموجودة في السوق وليس زهدا في الدنيا وطمعا في الآخرة. ولو كان وحيدا في السوق لم يزهد في بيع سلعته بأغلى الأثمان. وهذا هو الفرق بين التاجر المسلم التقي وغيره من التجار.

فليس المقصود بالرضا بالقليل هو الرضا بقليل العمل والفقر، وقعود المرء عن تنمية مهنته والارتقاء بها وإنمائها، ففي هذا من الفساد الخفي ما لا يدركه إلا القليل. فإن المؤمن التقي إن قعد عن تنمية تجارته أو مهنته قام بذلك غيرُه من الناس ممن ليسوا من أهل التقوى، فتحولت مصالح الناس إليهم، وإن أصبح هؤلاء هم الرؤساء في تلك المهنة أو التجارة فلا شك ستظهر مفاسد بقدر ضعف تقواهم لله، وأقل ما يظهر هو غلاء الأسعار، وقد يظهر الغش والاحتكار، غير التسلط على العمال الضعفاء من أرباب الأعمال، وبخس أجورهم لأن رب العمل سيراها نقصا من أرباحه.

والتاجر ليس شرطا أن يكون ممن يعملون بالتجارة فقط، فقد يكون مزارعا أو طبيبا أو مهندسا.

فلا يعني الرضا بالقليل في حق المزارع أن يرضى بقطعة أرض صغيرة يتقوت منها هو وأولاده، ويعيش كذلك بقية حياته فلا ينميها ولا يزيد عليها ولا يسعى

لاستصلاح الأرض البوار، فليس ذلك من إعمار الأرض، وكان الأولى بذلك لو كان صحيحا أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد كان منهم من يمتلك بساتين وأراض، وتواترت الأحاديث عنهم وهم يتصدقون منها أو بها منهم عمر بن الخطاب وأبو الدحداح رضي الله عنهما.

ولم يقعد أبو بكر الصديق وذو النورين عثمان أو عبدالرحمن بن عوف رضي الله عنهم عن التجارة أو رضوا بهين منها رضا بالقليل، بل عملوا على تنمية تجارتهم، ولكن لم يكن همهم اكتناز الأموال أو رفع الأسعار طمعا في جمع المال. ومع ذلك فقد بارك الله لهم حتى جمعوا أموالا كثيرة، فتصدق عثمان رضي الله عنه في غزوة العسرة بما هو مشهور، وفي عام الرمادة تصدق بقافلة عظيمة ارتجت لها المدينة، وتصدق عبد الرحمن بن عوف بقافلة عظيمة ابتغاء وجه الله، وأنفق أبو بكر ماله كله في سبيل الله على مدى سنين جاهد فيها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم. وهؤلاء هم خيرة صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأتقى الناس بعده وأزهدهم في الدنيا، فكيف تنتفي فيهم صفة من صفات التقوى التي ذكرها الإمام علي كرم الله وجهه إن لم يكن ذلك من سوء فهمنا لها.

فسعي المسلم التقي لإتقان عمله والارتقاء بمهنته وتنمية تجارته وتطويرها أمور يحتاج إليها المجتمع من دون أن يكون همه من وراء ذلك جمع المال والحرص على اكتنازه، بل همه نفع المسلمين وتقديم القدوة الحسنة لهم ولدينه راضيا بالقليل من المال، كلٌ على حسب مهنته وتجارته.

والرضا بالقليل يعني أيضا ألا يُهلك المرء وقته كله في عمله مهملا واجباته نحو أهله وما عليه من حق لربه. فبعض الناس مثل بعض المدرسين والأطباء يهلك أحدهم نفسه في جمع المال من هنا وهناك، فلا يراه أهلُه إلا بعد منتصف الليل، وهناك غيرهم يفعلون مثل ذلك، وكلهم يجرون وراء جمع المال لا هم لهم سواه. والإسلام أشار إلى حرص الناس على جمع المال إشارةً توحي بالذم في قوله تعالى:

﴿ وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ ﴾

(الفجر: ٢٠)

ولكنه تعالى لم يذم الناس على ابتغائهم الرزق من فضله، بل حث عل ذلك في قوله تعالى:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾ ﴾

(الملك: ١٥)

وقال تعالى:

﴿... عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ ﴾

(المزمل: من الآية ٢٠)

فالضرب في الأرض دليل على صفة الاجتهاد في العمل، وليس على المؤمن بعد ذلك ما يأتيه من رزقه؛ فإن كان قليلا رضي به، وإن كان كثيرا لم يبخل به على

الناس، وكان كريما على من هم تحت يده من العمال، ولم يغالِ على الناس حاجاتهم التي جعلها الله إليه، ولم ينشغل-بطلبه للرزق-عن فرائض الله التي افترضها عليه ومنها الزكاة التي ليست بواجبة على الفقير كما هو معلوم، وذلك ما بينه الله عز وجل في تكملة الآية السابقة:

﴿ ... وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقۡرِضُواْ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًاۚ وَمَا تُقَدِّمُواْ لِأَنفُسِكُم مِّنۡ خَيۡرٖ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيۡرٗا وَأَعۡظَمَ أَجۡرٗاۚ وَٱسۡتَغۡفِرُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ٢٠ ﴾

(المزمل: من الآية ٢٠).

فالرضا بالقليل يعني ألا يكون جمع المال والاستكثار منه هدفا للمؤمن، فلا فائدة في كنز الأموال، إنما هي للورثة في الدنيا وحساب في الآخرة.

ولا يعني الرضا بالقليل أن يتكاسل المؤمن عن إعمار الأرض ونفع المسلمين بتوفير فرص العمل لهم ليستغنوا بأنفسهم عن سؤال الناس، وذلك أفضل ألف مرة من التصدق عليهم.

وعندما يكثر مثل هؤلاء في المجتمع فسيكون مجتمعا متناميا تعمر به الأرض، مع رحمة الناس ببعضهم البعض، ويدور المال في عجلة الاقتصاد فيكون نماء وقوة للمجتمع.

الاستعداد للموت والرحيل

مهما تغافلت أيها الإنسان أو تناسيت فإن نقطة النهاية لتلك الرحلة التي تقطعها في الدنيا هي الموت. بل إن الموت هو نهاية كل حي، ومع ذلك فإن أكثر الناس غافلون عنه وعن ما وراءه. قال تعالى:

﴿ قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ ﴾

(الجمعة: ٨)

إن الموتَ ساعةٌ لا بد منها مهما طال العمر أو قصر، فإنه الغائب الحاضر، وهو الحقيقة المنسية، فهو حاضر كل يوم أمام أعين الناس، ولكنه غائب عن أنفسهم، يعيش أحدهم وكأن الموت لن يأتيه، فلا يفكر فيه ولا يفكر فيما وراءه، وهو مسكين، سيذوق الموت حتما يوما ما، ثم يشاهد بعده ما كان غافلا عنه ولم يستعد له.

ولو كان الموت نهاية الحياة لكان أمر الموت هين، ولكن هو جسر لا بد لكل بني آدم أن يعبروه إلى حياة أخرى لا تنتهي ولا رجوع منها إلى الدنيا أبدا، فإما إلى جنة عرضها السموات والأرض، أو إلى نار تلظى لا يموت فيها ولا يحيى.

يقول تعالى:

﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا

تَرَكۡتُۚ كَلَّآۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَاۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرۡزَخٌ إِلَىٰ يَوۡمِ يُبۡعَثُونَ ﴿١٠٠﴾ ﴾
(المؤمنون)

يقول أنس رضي الله عنه: ألا أحدثكم بيومين وليلتين لم تسمع الخلائق بمثلهن: أول يوم يجيئك البشير من الله تعالى إما برضاه وإما بسخطه، ويوم تعرض فيه على ربك آخذ كتابك إما بيمينك أو بشمالك، وليلة تستأنف فيها المبيت في القبور، وليلة تمخض صبيحتها يوم القيامة.

والموت والتفكر فيه وفي شدته وأنه لا مفر منه، أعظم ما يوجب الخوف من الله، وأعظم ما يزهد في الدنيا وزخرفها، وأعظم ما يذهب عن النفس غرورها وخداعها، ولذلك يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

« أَكْثِرُوا من ذِكْرِ هادمِ اللَّذَّاتِ، أحسبُه قال: فإنَّهُ ما ذكرَه أَحَدٌ في ضيقٍ من العَيشِ إلَّا وَسَّعَه، ولا في سَعةٍ إلَّا ضيَّقَه علَيهِ »(1) .

فتخيل يا أخي نفسك وأنت على فراش الموت تعاني مرارة الموت، وتخيل نفسك وهم يحملوك إلى قبرك، وتخيل مبيتك فيه وحيداً في حفرة ضيقة مظلمة مغلقة محكمة، وتخيل أول ليلة تبيتها وأول نزلة تنزلها، ثم تخيل أول سؤال تسمعه في القبر: من ربك؟ ما دينك؟ ماذا تقول في الرجل الذي بعث فيكم.

---

(١) صحيح الترغيب للألباني رقم(٣٣٣٤)وقال حسن لغيره.

تخيل كل ذلك وتخيل حالك، تخيل ذلك اليوم قبل أن يأتيك فجأة. فهل أعددت نفسك لهذا اليوم؟؟ أم أنك ستظل تخادع نفسك عنه حتى يأتيك بغتة فتقول يا ليتني قدمت لحياتي.

أما آن لك أيها الغافل أن تنتبه من غفلتك قبل نزول الموت بك، وقبل نزولك إلى قبرك ؟!!!.

أما آن لكل امرئ إن كان عاقلا أن يشتري ما يبقى بما سيفنى، فإن الدنيا عنوانها (كل من عليها فان) وأما الآخرة فعنوانها (خالدين فيها ما دامت السموات والأرض).

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:((**لا إله إلا الله، إنَّ للموت سَكرات**))[1] .

سكرات وأي سكرات؟ يقول العلماء:كل سكرة منها أشد من ألف ضربة بالسيف.

وسكرات الموت هو ما يسبق خروج الروح، وكل مؤمن وكافر يمر بها

ولكنها تكون شديدة جدا على الكافر. والجميع سيشرب من ذلك الكأس، ويغتص منه غصته، قال سبحانه : ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ ﴾ (آل عمران :١٨٥)، وقد سأل رسول الله ربه أن يهون عليه سكرات الموت.

(١) رواه البخاري في صحيحه- حديث رقم ٦٥١٠

وأما لحظة خروج الروح نفسها فتكون سهلة على المؤمن فتنساب كما ينساب الماء من السقاء، وأما الكافر فتكون شدتها عليه كنزع السفود من الصوف المبلل.

فالروح الطيبة تأتيها الملائكة فتقول لها: اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب، وأما الروح الخبيثة فتقول لها ملائكة الموت: اخرجي أيتها النفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث.(١) .

عن البراء بن عازب قال : خرجنا مع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – في جنازة رجل من الأنصار ، فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وجلسنا حوله كأن على رءوسنا الطير، وفي يده عود ينكت به في الأرض، فرفع رأسه فقال :**استعيذوا بالله من عذاب القبر – مرتين أو ثلاثا – ثم قال:**

إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان أهل الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه، فيقول: اخرجي أيتها النفس الطيبة، اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن، وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على

(١) من حديث بن ماجه عن أبي هريرة– كتاب الزهد–باب ذكر الموت والاستعداد له رقم (٤٢٩٦)

وجه الأرض، قال فيصعدون بها، فلا يمرون يعني بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كان يسمونه بها في الدنيا، حتَّى ينتهوا بها إلى السَّماءِ الدُّنيا فيستفتحون له فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها حتى ينتهى به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، أعيدوه إلى الأرض ، فإني منها خلقتهم ، وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان، فيجلسانه، فيقولان: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان ما هذا الرجل الذي بُعث فيكم فيقول هو رسول الله فيقولان له وما عمَلُك فيقول قرأت كتاب الله فآمنتُ به وصدَّقتُه، فينادي مناد من السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، قال : ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول أبشر بالذي يسرك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له: من أنت فوجهك الوجه الذي يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: رب أقم الساعة رب أقم الساعة، حتى أرجع إلى أهلي ومالي.

وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول : أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى

سخط من الله وغضب، قال : فتفرق في جسده فينتزعها، كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلونها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن جيفة وجدت على وجه الأرض فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث. فيقولون: فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى يُنتهَ به إلى السماء الدنيا، فيستفتح فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط)﴿الأعراف:٤٠﴾، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحا، ثم قرأ: (ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق)﴿سورة الحج : ٣١﴾، فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء: أن كذب، فافرشوه من النار، وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح، فيقول له: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: ومن أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك

الخبيث، فيقول: رب لا تقم الساعة. [1] .

فكفى بالموت واعظًا، لمن كان له قلب أو ألقى السَّمع وهو شهيد.

والمقصود بالخوف من الموت هو الاستعداد لما بعد الموت، لأن بعد الموت لا موت، بل جنة لا يتمنى أهلها فيها الموت ولا الخروج منها، أو نار يتمنى أهلها الموت فيها في كل لحظة أو أن يَقضي عليهم رب العزة والجبروت، ولكن هيهات، فقد قضى عليهم ربهم (إنكم ماكثون).

يقول تعالى :

﴿ وَٱسۡتَفۡتَحُواْ وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٖ ۝١٥ مِّن وَرَآئِهِۦ جَهَنَّمُ وَيُسۡقَىٰ مِن مَّآءٖ صَدِيدٖ ۝١٦ يَتَجَرَّعُهُۥ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُۥ وَيَأۡتِيهِ ٱلۡمَوۡتُ مِن كُلِّ مَكَانٖ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٖۖ وَمِن وَرَآئِهِۦ عَذَابٌ غَلِيظٞ ۝١٧ ﴾ (إبراهيم).

فذكر الموت وتذكُّرُهُ هو الـمُعين الأول على الاستقامة على دين الله عز وجل، واتباع منهجه وشريعته، وهو أشد باعث للمرء على التدين. فهو يزهد في الدنيا ويقلل كل كثير من متاع الدنيا، ويكثر كل قليل منها، ويعين على العمل الصالح. ولذلك وصى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أكثروا من ذكر هادم اللذات.

وإن أناسا في هذا الزمان مفسدون في الأرض يدعون إلى الحرية ويزعمون الإصلاح، وحقيقتهم الانحلال وكراهية شرع الله لَيكرهون ذكر الموت وذكر

---

(١) المحدث:الألباني المصدر:صحيح الترغيب الجزء أو الصفحة ٣٥٥٨:حكم المحدث:صحيح

القبر، بل ويكرهون من يذكّرهم به، وفوق ذلك لا يريدون أن يُذكّر الناسُ بالموت ولا بعذاب ونعيم القبر، وذلك لأنهم يريدون أن يقطعوا على الناس صلتهم بالآخرة، ليكونوا مثلهم في انحلالهم عن دين الله عز وجل وشريعة الإسلام، وليسهُل عليهم استدراج الناس إلى أفكارهم المنحلة عن دين الله والكتاب والسنة.

وهؤلاء يستخدمون في سبيل ذلك أسلوب الخداع بالعبارات لكي يدفعوا العلماء أن يتوقفوا عن تذكير الناس بالموت والدار الآخرة مثل تجديد الخطاب الديني، أو اتهام العلماء بأنهم ينغصون على الناس حياتهم بذكر الموت، وكل ذلك لأن ذكر الموت ينغص عليهم هم شهواتهم ويقلق ضمائرهم، وهم يريدون اتباع أهوائهم التي لا تريد أن تتقيد بما جاء في كتاب الله عز وجل، وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهؤلاء على فسادهم من أغبى الناس، وذلك لأن العاقل هو الذي يستعد لمستقبله كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث عن ابن عمر أنه قال: كنت مع رسول اللهّ صلى الله عليه وسلم فجاءه رجل من الأنصار فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم قال: يا رسُول اللهَّ أيُّ المؤمِنين أفضلُ؟ قال: أحسنُهم خُلُقا،قال فأيُّ المؤمنين أكيسُ؟قَالَ:أكْثرُهُم للموتِ ذكرا وأحسنُهم لما بعده استِعدادا أولئك الأكياس.(١)

(١) أخرجه ابن ماجة-باب الزهد- باب ذكر الموت (٤٢٩٣) وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب رقم ٣٣٣٥.

فليتنبه العلماء لخطتهم الخبيثة في محاولة هؤلاء الفاسدين صرفهم عن تذكير الناس بالموت وعذاب القبر ونعيمه، وما بعد الموت من جنة أو نار.

وإذا كان مقصود ذكر الموت هو الحث على الاستقامة والعمل الصالح وتقوى الله عز وجل، فينبغي توضيح ذلك للناس حتى لا يقتصر تذكيرهم بالموت على مشاعر لحظية يتأثرون فيها بكلمات الواعظ أو الداعية، بل يجب تذكيرهم بأن الموت جسر إلى حياة أخرى وهي الحياة الحقيقية، وأن الدنيا ما هي إلا دار غرور.

يقول الله تعالى:

﴿ وَمَا هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَهْوٌ وَلَعِبٌ ۚ وَإِنَّ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ لَهِىَ ٱلْحَيَوَانُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾.

(العنكبوت: ٦٤)

فمقصود ذكر الموت كما قلنا هو حث الناس على العمل الصالح والاستقامة على دين الله، وتقوى الله عز وجل، واستعدادهم ليوم الحساب، وليس المقصود به هو تنغيص حياتهم بذكره، ولكن ما الفائدة من أن ننسيهم الموت حتى لا ننغص عليهم متعتهم بالحياة الدنيا ليُفاجِؤُهم الموت وهم غير مستعدين للقاء الله عز وجل ولا ليوم الحساب، فيكون مصيرهم عذاب النار في حياة أبدية لا موت فيها، وعندئذ يندمون حين لا ينفع الندم، وحينها لن ينفعهم هؤلاء الذين يُنغصُّ عليهم ذكرُ الموت مسامعهم، فالدنيا ما هي إلا دار اختبار وبلاء للإنسان، وهي الغاية التي خلق الله من أجلها الموت والحياة، يقول الله تعالى:

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾.(الملك: ٢)

والناظر في الناس يرى أن الموت ليس له سن معلوم، ولا زمن معلوم، فكن يا عبدالله مستعداً له، فهو آتيك وملاقيك، ولا تغرك نفسك بطول الأمل ولا يغرك الشيطان بزخرف الدنيا وشهواتها ومشاغلها ومباحاتها، فإن مَنْ أكثر من ذكر الموت أُكرم بثلاثة أشياء: تعجيل التوبة، وقناعة القلب، ونشاط العبادة، ومن نسي الموت عوقب بثلاثة أشياء: تسويف التوبة، وترك الرضا، والتكاسل في العبادة.

والقبر هو أول منازل الآخرة، فهو إما روضة من رياض الجنة، أو حفرة من حفر النار، وفيه يكون أول الحساب، وهو حساب الملكين، قبل الحساب العظيم والعرض الأكبر أمام ملك الملوك يوم القيامة.

عن أنس رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:

«إن العبد إذا وُضع في قبره وتُولِّي وذهب أَصحابه، حتى إنه يسمع قرْع نعالهم، أَتاه ملكان فيقعدانه، فيقولان له: ما كنت تقول في هذا الرجل؟ لمحمد- فأما المؤمن فيقول: أَشهد أَنه عبد الله ورسوله، فيُقال: انظر إلى مقعدك من النار، قد أَبدلك الله به مقعدا من الجنة فيراهما جميعا ويفسح له في قبره سبعون ذراعا، ويملأ عليه خضرا إلى يوم يبعثون». وأَما الكافر، أَو المنافق، فيقال له ما كنت تقول في هذا الرجل؟ فيقول: لا أَدري، كنت أَقول ما يقول الناس، فيقال: لا دريت ولا تليت، ثم يُضرب بمطراق من حديد ضربة بين أُذنيه، فيصيح صيحة

يسمعها من يليه غير الثّقلين ويضيق له قبره حتى تختلف أضلاعه»[١] .

ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«ما رأيتُ مَنظرا قَطُّ إلا القبر أفظعُ منه»[2] .

يقول ابن عوف: خرجتُ مع عُمَر - رضي الله عنه - إلى المقبرة، فلما وقفنا عليها ارتعد واختلس يده من يدي، ثم وضع نفسه على الأرض، وبكى بكاءً طويلاً، فقلت: ما بك؟ قال: يا ابن عوف ثكلتك أمك، أنسيت هذه الحفرة؟!

كان عثمان رضي الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته، فقيل له : تذكر الجنة والنار فلا تبكي، وتبكي من هذا ؟ فقال: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **"إن القبر أول منازل الآخرة، فإن نجا منه فما بعده أيسر منه، وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه"**.[٣] .

يَمُرُّ عمرو بن العاص - رضي الله عنه - بالمقبرة فيبكي ثم يرجع، فيتوضأ ثم يصلي ركعتين، فيقول أصحابه: لمَ فعلت ذلك؟ قال: تذكَّرتُ قول الله :﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾(سبأ:٥٤)، وأنا أشتهي الصلاة قبل أن يُحَالَ بيني وبينها.

خطَب عمر بن عبدالعزيز، فحَمِدَ الله تعالى وأثنى عليه، وقال:

---

(١) صحيح الجامع للألباني ١٦٧٥

(٢) رواه الترمذي كتاب الزهد باب ٥ رقم(٢٣٠٨)، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع

(٣) رواه الترمذي كتاب الزهد باب ٥ رقم(٢٣٠٨)،

"أيها الناس، إنكم لن تُخلَقُوا عبثا، ولن تُتْرَكُوا سُدًى، وإنّ لكم معادا يجمعكم الله للحُكم فيكم، والفصل فيما بينكم، فخاب وشقي عبدٌ أخرجه الله من رحمته التي وَسِعَتْ كل شيء، وجنته التي عرضها السماوات والأرض، وإنما يكون الأمان غدا لِمن خاف الله واتَّقى، وباع قليلا بكثير، وفانيا بباق، وشقوة بسعادة".

كان يزيد الرقاشي – رحمه الله – يقول لنفسه: "ويحك يا يزيد! مَن ذا يصلي عنك بعد الموت؟ مَن ذا يصوم عنك بعد الموت؟ مَن ذا يُرضي عنك ربك بعد الموت؟ ثم يقول: يا أيها الناس، ألا تبكون وتَنُوحون على أنفسكم باقي حياتكم؟ مَن الموت طالبه، والقبر بيته، والتراب فراشه، والدود أنيسه، وهو من هذا ينتظِر الفزَع الأكبر، كيف يكون حاله؟ ثم يبكي حتى يسقط مغشيًّا عليه"

وقال بعضهم: دخلنا على عطاء السلمي نعوده في مرضه الذي مات فيه، فقلنا له: كيف ترى حالك؟ فقال: الموت في عنقي؛ والقبرُ بين يدي، والقيامة موقفي؛ وجسر جهنم طريقي، ولا أدري ما يفعل بي؛ ثم بكى بكاءً

شديدا حتى غُشِيَ عليه، فلما أفاق قال:

اللهم ارحمني؛ وارحم وحشتي في القبر، ومصرعي عند الموت، وارحم مقامي بين يديك يا أرحم الراحمين.

روي عن عبدالرحمن بن يزيد – وكان له حظٌّ من دين وعقل – أنه قال لبعض أصحابه: أبا فلان، أخبرني عن حالك التي أنت عليها، أتَرْضاها للموت؟ قال: لا، قال: فهل أزمعت التحويل إلى حالٍ ترضاها للموت؟ قال: لا، والله ما تاقتْ

نفسي إلى ذلك بعد، قال: فهل بعد الموت دارٌ فيها معتمل؟ قال: لا، قال: فهل تأمن أنْ يأتيك الموت وأنت على حالك هذه؟ قال: لا، قال: ما رأيت مثل هذه حالاً رضي بها، وأقام عليها عاقل.

وأتى مالك بن مغول إلى سفيان الثوري فبكيا حتى رقّا، حتى قال سفيان: ما أحب أن أقوم من مكاني حتى أموت، فقال له مالك بن مغول: ولكني والله لا أرضى ذلك !-أي: لا أحب ذلك- قال له سفيان: ولم؟ قال: معاينة الرسل، -أي: رؤية ملك الموت وملائكة العذاب أو ملائكة الرحمة- ولم ترهم من قبل، وخوف السكرات، واصطكاك الأسماع، واختلاف الأضلاع، وترادف الحشارج، وتتابع الأنين، ثم رؤية ملك الموت. فكأن أهلك قد دعوك فلم تسمع وأنت محشرج الصدر، وكأنهم قد وضعوك على ظهر السرير وأنت لا تدري، وكأنهم قد زودوك بما يتزود الهلكى من العطر، يا ليت شعري كيف أنت إذا غسلت بالكافور والسدر، يا ليت شعري كيف أنت على نبش الضريح وظلمة القبر، يا ليت شعري ما تقول إذا وضع الكتاب صبيحة الحشر.....

أيها الغافل اللاهي:

إن للدنيا غفلة ونسيانا تضرب قلب الإنسان كما تضرب الخمر عقل الإنسان، فهي تستدرجه وتلهيه وتشده إليها، وإن أكثر ما تلهيه به هو المباحات ومشاغلها التي لا تنقطع، ولا ينتهي المرء من باب حتى ينفتح له منها باب آخر، ولا ينغلق عليه منها باب إلا وفَتَحت عليه أبواب وأشغال، ويظل كذلك في ساقية تدور

حتى يأتيه الموت، فينظر خلفه فلا يرى إلا قليل عمله، وينظر أمامه فيرى حسابا وكتابا لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا وقد سجلها عليه.

فيا جامع المال، ليس لك والله من مالك عند موتك إلا الأكفان وأما جسمك فإلى التراب، فأين الذي جمعتَه من مال؟ تركتَه إلى ورثتك يتمتعون به وتحاسب أنت عليه، وقَدِمت بعملك القليل على ربك الذي أنعم عليك، وأمهلك حتى انقطع عذرك.

ويا صاحب السلطان والقوة والعزة والجبروت، ليس لك في نهاية أمرك إلا الكفن ودفنك في التراب، وستذهب قوتك وسطوتك، ولن ينقذك شيء من الموت، ثم تأتي اللهَ العزيز الجبار ليحاسبك على كل ذلك، فإن سخرت كل ذلك في طاعة الله نجوت برحمة الله، وإن سخرتهم في طاعة الشيطان فمصير حالك أليم وعذاب عظيم.

ويا طالب الدنيا سيقتلك الحرص عليها، ولن تنالَ منها إلا ما قد كتبه الله لك منها، ولن يزيدك حرصك عليها إلا نصبا وشقاء.....فهل من معتبر؟!

قصص عن تقوى الله عز وجل

كانت امرأة جميلة بمكة، وكان لها زوج، فنظرت يوما إلى وجهها في المرآة، فأعجبت بجمالها، فقالت لزوجها : أترى يرى أحد هذا الوجه لا يفتتن به ؟ !

قال : نعم.

قالت : من ؟

قال : عبيد بن عمير .

قالت : فأذن لي فيه فلأفتننه.

قال : قد أذنت لك .

فأتته كالمستفتية، فخلا معها في ناحية من المسجد الحرام، فأسفرت المرأة عن وجهها، فكأنها أسفرت عن مثل فلقة القمر .

فقال لها : يا أمة الله !

فقالت : إني قد فتنت بك، فانظر في أمري .

قال : إني سائلك عن شيء، فإن صدقت، نظرت في أمرك .

قالت : لا تسألني عن شيء إلا صدقتك .

قال : أخبريني لو أن ملك الموت أتاك يقبض روحك أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة ؟

قالت : اللهم لا .

قال : صدقت .

قال : فلو أدخلت في قبرك، فأجلست لمساءلة أكان يسرك أني قد قضيت لك هذه الحاجة ؟

قالت : اللهم لا .

قال : صدقت .

قال : فلو أن الناس أعطوا كتبهم لا تدرين تأخذين كتابك بيمينك أم بشمالك، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة؟

قالت : اللهم لا .

قال : صدقت .

قال : فلو أردت المرور على الصراط، ولا تدرين تنحني أم لا تنحني، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة ؟

قالت : اللهم لا .

قال : صدقت .

قال : فلو جيء بالموازين، وجيء بك لا تدرين تخفين أم تثقلين، أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة ؟

قالت : اللهم لا .

قال : صدقت .

قال :فلو وقفت بين يدي الله للمساءلة أكان يسرك أني قضيت لك هذه الحاجة ؟

قالت : اللهم لا .

قال : صدقت، ثم قال لها : اتق الله يا أمة الله، فقد أنعم الله عليك، وأحسن إليك.

فرجعت إلى زوجها. فقال لها : ما صنعت؟

فقالت له : أنت بطال، ونحن بطالون، ثم أقبلت على الصلاة، والصوم والعبادة .

أمر قوم امرأة ذات جمال بارع أن تتعرض للربيع بن خثيم لعلها تفتنه، وجعلوا لها إن فعلت ذلك ألف درهم ... فلبست أحسن ما قدرت عليه من الثياب، وتطيبت بأطيب ما قدرت عليه، ثم تعرضت له حين خرج من مسجده، فنظر إليها فراعه أمرها، فأقبلت عليه وهي سافرة.

فقال لها الربيع : كيف بك لو قد نزلت الحمى بجسمك، فغيرت ما أرى من لونك وبهجتك؟ أم كيف بك لو قد نزل بك ملك الموت، فقطع منك حبل الوتين؟ أم كيف بك لو سألك منكر ونكير؟

فصرخت المرأة صرخة، فخرت مغشيا عليها، فوالله لقد أفاقت، وبلغت من عبادة ربها ما أنها كانت يوم ماتت كأنها جذع محترق.

(وما يلفت النظر في الناس عندئذ سرعة تأثرهم بالموعظة، وتغير حالهم من المعصية إلى الطاعة والعبادة بعد التذكرة.)

يحكي د. راتب النابلسي يقول: جاء شاب لأحد علماء دمشق فقال له: أنا ليس عندي مال، وليس لي وظيفة مرموقة، وليس لي بيت، ولا آمل أن أتزوج لمدة خمسين سنه فماذا أفعل؟

فقال له هذا العالم: اتق الله.

فرد عليه الشاب بقولة عظيمة: وماذا تفعل لي!!.

فقال له العالم اتق الله وسترى.

وكان هذا الشاب مجرد عامل في محل، وكان من قبل لا يتق الله في عمله فيهمله ولا يهتم بشؤنه.

فتفكر هذا الشاب في مقالة هذا العالم وعزم على تقوى الله في حياته بما في ذلك عمله. ومنذ ذلك اليوم أصبح يعمل في عمله وكأن المحل ملك له، حتى أصبح إذا ذهب إلى الصلاة يسارع بالعودة إلى عمله.

فلاحظ صاحب المحل هذا التغيير الذي طرأ على الشاب وهذا الصلاح

وهذه التقوى التي ظهرت عليه، فتابعه لمدة سنه كاملة. وكان لهذا الرجل بنتا يريد أن يزوجها لرجل صالح تقي، فذهب فاشترى بيتا فقدمه هديه لهذا الشاب، ثم طلب منه الزواج من ابنته وزوجه إياها.

فما لم يأمل هذا الشاب أن يحققه في خمسين سنه أعطاه الله إياه بلا ثمن بتقوى الله في سنة واحدة.

يقول الله تعالى: ﴿ وَأَلَّوِ ٱسْتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَٰهُم مَّآءً غَدَقًا ﴿١٦﴾ ﴾ (الجن: ١٦)

قصص عن حسن و سوء الخاتمة

أما سوء الخاتمة فمن أسبابها أن يُصرّ العبد على المعاصي ويألفَها حتى تصبح جزءا أساسيا من حياته أو كل حياته، وعندئذ سيموت عليها في غالب الأحيان أو غير بعيد عنها. وإن الإنسان إذا أحب شيئا وتعلق به فالغالب سيموت عليه، فمن عاش على شيء مات عليه خيرا كان أو شرا. ومن أسباب سوء الخاتمة فساد التوحيد في قلب العبد بإتيان البدع والشركيات، ومخالفة الباطن للظاهر وهو النفاق والرياء.

وأنا إذ أسوق بعضا من تلك القصص التي لم تكن خاتمتها حسنة، فلكي يتذكر المسلم أن هناك ساعة ستأتيه ستنبئ عن ملخص حياته كلها في كلمات قصيرة، لن يستطيع أن يتصنع فيها التقوى، ولن يستطيع فيها أن ينطق بكلمة التوحيد إن كان قد عاش لغيرها. فتلك الساعة لا يثبت فيها أحدٌ إلا من ثبته الله تعالى، ولا يُوفَق فيها أحد إلا من أكرمه الله عز وجل، يقول الله تعالى :

﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأَخِرَةِ ۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴿٢٧﴾ ﴾ (إبراهيم: ٢٧) .

سأسوق قصصا في حسن وسوء الخاتمة من واقعنا في زماننا هذا، حتى تكون أكثر قربا إلى مشاعرنا، ولتكون أكثر عظة لنا.

وقع حادثٌ على إحدى الطرق السريعة لثلاثة من الشباب، كانوا يستقلّون سيارة

واحدة، توفِّي اثنان منهما في الحال، وبقي الثالث في آخر رمق، فقال له رجل المرور الذي حضر الحادث قل : لا إله إلا الله، فأخذ يحكي عن نفسه ويقول: أنا في سقر، أنا في سقر، أنا في سقر، حتى مات على ذلك. فسأل رجل المرور: ما هي سقر؟ فوجد الجواب في كتاب الله -عز وجل :

﴿ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ (المدثر:٤٢،٤٣) .

يروي آخر يقول:

شاب من أولئك المنحرفين الذين كانوا يسافرون إلى ((بانكوك)) للفسق والدعارة، بينما كان في سكره وغيه ينتظر خليلته - وقد تأخرت عليه - فما هي إلا لحظات حتى أقبلت عليه، فلما رآها خر ساجدا لها تعظيما، ولكنه لم ينهض من تلك السجدة الكافرة إلا وهو محمول على الأكتاف قد فارق الحياة، فنعوذ بالله من سوء الخاتمة.

أربعة من الشباب، كانوا يعملون في دائرة واحدة، مضت عليهم سنين وهم يجمعون رواتبهم، فإذا سمعوا ببلد يفعل الفجور طاروا إليها وبينما هم في ذات يوم جالسين إذ سمعوا ببلاد لم يذهبوا إليها، وعقدوا العزم أن يجمعوا رواتبهم هذه المرة ليسافروا إلى تلك البلاد التي حددوها. وجاء وقت الرحلة وركبوا طيارتهم ومضوا إلى ما يريدون، ومر عليهم أكثر من أسبوع في تلك البلاد وهم بين زنا وخمور، وأفعال لا ترضى الرحمن، وبينما هم في ليلة من الليالي، وفي ساعة متأخرة من الليل، يجاهرون الله - تعالى -بالمعصية والفجور، إذا بأحد الأربعة

يسقط مغشيا عليه، فيهرع إليه أصحابه الثلاثة فيقول له أحدهم في تلك الليلة الحمراء، يقول له: يا أخي، قل لا اله إلا الله، فيرد الشاب – عياذا بالله-: إليك عني، زدني كأس خمر، – تعالى – يا فلانة، ثم فاضت روحه إلى الله وهو على تلك الحال السيئة، نسأل الله – تعالى – السلامة والعافية.

ثم كان حال الثلاثة الآخرين -لما رأوا صاحبهم وما آل إليه أمره- أخذوا يبكون، وخرجوا من المرقص تائبين، وجهزوا صاحبهم، وعادوا به إلى بلاده محمولا في التابوت، ولما وصلوا المطار فتحوا التابوت ليتأكدوا من جثته، فلما نظروا إلى وجهه فإذا عليه كدرة وسوادا – عياذا بالله –.

*قيل لرجل كان يشرب الخمر، قل: لا إله إلا الله، فقال: اشرب واسقني، ثم مات.

*وآخر كان منهمكًا في التجارة قيل له قل: لا إله إلا الله، فقال: هذه رخيصة وهذا مشترٍ جيد ثم مات.

*وقيل لرجل من أكلة الربا: قل: لا إلهَ إلا الله، فقال: عشَرةٌ بأحدَ عشَر.

*وقيل لآخر: قل لا إله إلا الله، فجعل يهذي بالغناء ويقول تاتنا تنتنا حتى مات.

*وقيل لآخر: قل لا إله إلا اللهأ فقال: ما ينفعني ما تقول ولم أدع معصية إلا ارتكبتها ثم مات ولم يقلها.

*وقيل لآخر ذلك،فقال: وما يغني عنّي وما أعرف أني صليت لله صلاة ثم مات

نعوذ بالله من سوء الخاتمة والخذلان عند الموت.

تَخيلَ أحدُهم أحدَ العاصين في النار وهو يسأل: أين أصحابي الذين كنت معهم أعصي الله، ما لي لا أراهم معي؟!، فيأتيه الجواب: تابوا بعد موتك....!!!

أخي: اتعظ بغيرك قبل أن يتعظ بك غيرُك، وتب إلى الله قبل أن يتوب غيرُك اتعاظا بموتك، واعلم أنك مهما تغافلت وتناسيت الموت فسيُذكِّركَ الموتُ بنفسه حين يقدم عليك، ولن تنفعك الذكرى حينئذ.

أما **حسن الخاتمة** فهي فضل من الله لمن استقام ظاهره وصلح باطنه، وهذا لب التقوى. والذي يشترك فيه جميع المتقين هو حسن خاتمتهم عندما يحضرهم الموت، وعاين ذلك الكثير من الناس الذين قُدّر لهم رؤيتهم عند الموت أو بعد وفاتهم مباشرة، فرأوا من البشارات ما تتابعت الروايات بحكايته عنهم.

يحكي أحدهم فيقول:

صليت الظهر وتوجهت إلى بيتي وفي الطريق إذا بالجوال يرن وشاب يخبرني أن أباه قد مات وهو الآن يقف أمام المغسلة، فغيرت اتجاهي إلى المغسلة، أدخلنا الرجل إلى غرفة التغسيل وطلب ولده أن يشارك في تغسيل والده، كان معي اثنين من الشباب في التغسيل، وعندما كشفنا عن وجه الميت إذا برجل في نهايات الخمسين من عمره ويظهر على وجهه ما عانى من شدة السكرات فقد كان الوجه معبساً بشدة وأسنانه العلوية تضغط بشدة على شفته السفلى.

غسلنا الرجل وعندما انتهينا من تغسيله سألت ولده هل يرغب أحد بالسلام عليه قبل أن نغطي وجهه فقال: لا، فكفناه وانتهينا، وفجأة إذا بطرق

على باب غرفة الغسيل وإذا بأحد أولاد الميت قد حضر من مدينة أخرى، وهو يطلب أن ينظر إلى أبيه النظرة الأخيرة، فشرعت في كشف الأكفان عن وجه الميت وإذ بالمفاجأة، شيء لم يتوقعه أحد منا أبدا، فالرجل الذي داخل الأكفان ليس مَن غسلته قبل قليل. نعم؛ لقد تغير تماما، الوجه ليس الوجه، لقد تركت الأسنان الشفة السفلى وظهرت ابتسامة عظيمة جداً على وجه الرجل لدرجه أن أسنانه كلها ظهرت، تغيرت قسمات الوجه إلى راحة عجيبة، فناديت الشباب المغسلين وقلت لهم: هل هذا الرجل الذي غسلتموه قبل قليل؟ أما أحدهم فأخذ يكبر، والأخر لم يمتلك دموعه فأخذ يبكي، فسبحان الله ما أعظمها من كرامة ..... فسألت عن حاله مع الله ؟

فكان أعظم حال من صلاة وصيام، وفوق كل هذا عنده ولد ختم القرآن وهو مدرس لكتاب الله، وهذا الأب هو من كان يشجع ابنه ويدعمه على ذلك.

يحكي آخر يقول: اتصل علي شاب أعرفه جيداً ... كنت وقتها في عملي، وقال: أنت في عملك ؟؟؟

قلت: نعم، ثم قلت: خيرا إن شاء الله؟

فقال: إن بنت أخي قد توفيت قبل قليل، ونريدك أن تأتي ..... فقلت: في أي مستشفى أنتم؟ قال: نحن لسنا في المستشفى! قلت: إذن سأكون في بيتكم بعد قليل، قال : نحن لسنا في البيت!! قلت: إذن أين جثمان الفتاة، قال: في دار الحافظات (دار نسائية لتعليم وحفظ القران الكريم) ، قلت بأعلى صوتي :

لا إله إلا الله والله أكبر.

أما قصة الفتاة فهي فتاة متزوجة، ولم يكتب الله لها الإنجاب، وهي فتاة مستقيمة في دينها، وقبل أيام من وفاتها كانت تعاني من فقر دم بسيط، وفي هذا اليوم قامت هي وزوجها قبل أذان الفجر، فذهب زوجها للمسجد، وعندما عاد كانت قد جهزت طعام الإفطار، وقبل أن يخرج الزوج لعمله قالت له: أريد أن اذهب للتحفيظ قال لها: أنتِ متعبة اليوم.. دعيه في يوم آخر، فأصرت، فسمح لها بالذهاب.

بدأ التحفيظ..، قامت فسمّعت ما عليها من واجب للحفظ وكان جزءا كاملا.....

ثم توجهت الطالبات إلى المصلى لأداء صلاة الضحى، وبعد الصلاة إذا بها تشعر بضيق في التنفس، وظهر عليها أثر الضيق، فتجمعت المعلمات، واتصلن بزوجها، فحضر الزوج، وإذا بها في شدة التعب..

قال: نذهب للمستشفى؟ قالت: لا، قال: أحضر طبيباً ؟، قالت: لا؛ فأنا أموت الآن، ثم فاضت روحها.....

فاضت روحها وقد صلت الفجر في وقته، وسمّعت جزءا من كتاب الله، ثم صلت صلاة الضحى ثم ماتت. فما أروعها من خاتمة...

يُروى أن شيخا كبيرا مسنا كان لا يفارق الصف الأول للصلاة خلف الإمام، فصلى ذات يوم صلاة العصر ثم اقترب من الإمام زحفا على

مقعدته، فقال له علمني شيئا ينفعني الله به، ففوجئ الإمام بسؤاله وتحير قليلا ماذا يقول وأمامه رجل مسن، فلم يتذكر شيئا يقوله لهذا الشيخ المسن سوى حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده** "[1] .

فألقاه على مسامعه، فقال له الشيخ المسن أعدها علي فأعاد الحديث: "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده " فقال له الشيخ المسن أعدها علي، فأعاد عليه الحديث للمرة الثالثة، فحينئذ قال الشيخ المسن له كفى، وكأنه كان يريد أن يحفظ الحديث وهذا بالفعل ما أراده...

ثم مضى الشيخ فما يجلس مجلسا إلا وقال: يا إخواني، النبي صلى الله عليه وسلم يقول: كلمتان خفيفتان على اللسان ....." وما تدخل عليه امرأة من محارمه إلا ويقول لها " يا بنتي "كلمتان خفيفتان على اللسان ...." إلى نهاية الحديث، وما يزوره أحد من أقربائه إلا ذكر له الحديث، وظل كذلك لا يجلس مجلسا ولا يقابل رجلا أو امرأة إلا ذكر لهما الحديث، يدعو به إلى الله عز وجل....

(١) رواه البخاري في صحيحه رقم ٦٤٠٦

حتى جاء يوم فأصابته جلطة دماغية فنقل إلى المستشفى وفقد على إثرها وعيه، فظل أياما يحاول الأطباء معالجته إلى حين جاءت اللحظة، وكان الطبيب عند رأسه، فبدأ يستفيق وفتح عينيه ليجدَ الطبيبَ أمامه لابسا البالطو الأبيض، فلما أدرك أنه الطبيب قال له يا دكتور "كلمتان خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله العظيم سبحان الله وبحمده " ثم فاضت روحه إلى بارئها.

ما أجملها من خاتمة ..

ومن منا لا يتمنى مثل هذه الخاتمة .....

ولكن ليعلم الجميع؛. أن الله يوفق لهذه الخاتمة. من كان عمله في حياته على مثل ذلك، وكان باطنه مخلصا لله...

فانظر يا عبد الله إلى عملك، وما يشغل قلبك في دنياك...لتعرف كيف ستكون خاتمتك.

وقِف الآن الآن وقفة مع نفسك وتفكر في حالك قبل فوات الأوان.....

ثمرات التقوى في الدنيا والآخرة

أما ثمرات التقوى فأعلاها وأشرفها معية الله سبحانه وتعالى وحبه للمتقين، ولا شك أن ذلك يكون في الدنيا كما يكون في الآخرة.

يقول الله تعالي :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾ ﴾

النحل: ١٢٨)

﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ وَٱتَّقَىٰ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٧٦﴾ ﴾

(آل عمران: ٧٦)

ومن ثمراتها أنه لن يصاب مؤمن ببلاء أو شدة فيلتزم فيه تقوى الله وحسن الصبر فيه والرضا به إلا جعل الله له مخرجا من شدته، ولو كادته السموات والأرض، واجتمع عليه العالـمُون.

يقول الله تعالى:

﴿ مَن كَانَ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ ۚ وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ ﴾(الطلاق من الآية٢-٣)

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم:

((تعرَّف إلى الله في الرخاء يَعْرِفْك في الشدة))[1]

(١) رواه أبو القاسم بن بشران في أماليه عن أبي هريرة (صحيح) صحيح الجامع للألباني رقم: ٢٩٦١.

وقد جعل الله التيسير في أمور المتقين وحياتهم لمن يتقي الله سبحانه وتعالى، يقول سبحانه:

﴿... وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مِنْ أَمْرِهِۦ يُسْرًا ﴿٤﴾ ﴾

(الطلاق من الآية ٤)

ومن جزاء المتقين قبول الأعمال ومنها الصدقة، وهذه من أعظم الثمرات، فإنه لمن الكرم العظيم أن يتقبل الله من عبده عمله المتواضع. وإن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، فصدقة لم يتق اللهَ فيها صاحبُها وأخرجها رياء وسمعة أو من كسب غير طيب مردودة عليه.

يقول الله تعالي:

﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾

(المائدة: ٢٧)

ومن ثمرات تقوى الله للمؤمن أن يرزقه الله علما نافعا يمن الله به عليه، ليزداد رفعة وقربا من الله إن عمل به. يقول الله تعالي :

﴿ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٢٨٢﴾ ﴾

(البقرة: من الآية ٢٨٢)

يقول عمر بن عبد العزيز في تلك الآية : إنما قصر بنا عن علم ما جهلنا تقصيرنا في العمل بما علمنا، ولو عملنا ببعض ما علمنا لأورثنا علما لا تقوم به أبداننا.

ومن ثمرات التقوى أن يجعل الله في قلب المؤمن نورا يفهم به ما يُلقى إليه من

حكمة، ويجعل الله في قلبه فرقانا، ويفتح بصيرته فيفرق بين الحق والباطل، ويكفر الله بالتقوى سيئات المؤمن ويغفر له ذنوبه، وكل هذا لمن التزم التقوى في كل أعماله وكلامه وسكناته.

يقول الله تعالي :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ ٢٩ ﴾

(الأنفال: ٢٩)

وأعظم ما يناله المتقون من الخير هو جنات النعيم التي أعدها الله لهم ووعدهم إياها والتي ذكرها الله للمتقين خاصة في قوله تعالى:

﴿ مَّثَلُ ٱلۡجَنَّةِ ٱلَّتِي وُعِدَ ٱلۡمُتَّقُونَۖ فِيهَآ أَنۡهَٰرٞ مِّن مَّآءٍ غَيۡرِ ءَاسِنٖ وَأَنۡهَٰرٞ مِّن لَّبَنٖ لَّمۡ يَتَغَيَّرۡ طَعۡمُهُۥ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ خَمۡرٖ لَّذَّةٖ لِّلشَّٰرِبِينَ وَأَنۡهَٰرٞ مِّنۡ عَسَلٖ مُّصَفّٗىۖ وَلَهُمۡ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَمَغۡفِرَةٞ مِّن رَّبِّهِمۡۖ كَمَنۡ هُوَ خَٰلِدٞ فِي ٱلنَّارِ وَسُقُواْ مَآءً حَمِيمٗا فَقَطَّعَ أَمۡعَآءَهُمۡ ١٥ ﴾

(محمد: من الآية ١٥)

مراتب ومقامات التقوى

المقام الأول: هو مقام التوحيدأو مقام الإخلاص :

وهو أن يتقيَ المرءُ الكفرَ بتركه ، وهو إخلاص العبادة كلها لله بتحصيل التوحيد في قلب العبد قولاً وعملاً ، وتلك المرتبة بكمالها واجبة على العباد . ولا ارتفاع للعبد في مقامات العبودية بغيرها . ولذلك فهو المقام الذي يجب على العبد أن يكون أول مطلوبه من التقوى ويضعه نصب عينيه فلا يغفل عنه أبداً، لأن الله يغفر كل ذنب إلا الذنب الذي يصيب التوحيد والإخلاص لله رب العالمين .

يقول الله تعالى :

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾ ﴾ النساء ٤٨

المقام الثاني: هو مقام التوبة :

وهو أن يتقي المؤمن المعاصي والمحرمات بتجنبها ابتداءً، وبالمسارعة إلى التوبة منها إن ذل إلى واحدة منها . ولا ينافي كمال الإيمان أن يقع العبد في المعصية ،فابن آدم لا ينفك من الوقوع في معصية أو ذنب ، ولكن ما ينفي كمال الإيمان هو تأخير التوبة أو الإصرار على الذنب .

والمقام الثالث: هو مقام الورع :

وهو ترك الشبهات خوفاً من الوقوع في الحرام ، وفي هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إِنَّ الْحَلال بَيِّن وَالْحَرَام بَيِّن، وَبَيْنَهُمَا مُشْتَبِهَاتٌ لا يعْلَمُهُنَّ

كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، فَمَنِ اتَّقَى الشُّبُهَاتِ فَقَدِ اسْتَبْرَأَ لِدِينِهِ وَعِرْضِهِ، وَمَنْ وَقَعَ فِي الشُّبُهَاتِ وَقَعَ فِي الْحَرَامِ . (متفق عليه) . وقد كان صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم يتركون أبواباً من الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام .

والمقام الرابع: هو مقام الزهد :

وهو أن يتقي العبد الإسراف في المباحات والانشغال بها عما ينفعه في الآخرة، وقد كان السلف رضوان الله عليهم يتركون بعض الحلال ولا يستكثرون منه خوفاً من طول السؤال عليه يوم القيامة ، فيُحبسون عن الجنة ويسبقهم إليها غيرهم من الصالحين .

المقام الخامس: وهو أعلى المقامات هو مقام المشاهدة :

وهو أن يتقي العبد حضور غير الله في قلبه وذلك هو الإحسان في العبادة ، وهو أن تعبد الله كأنك تراه ، فان لم تكن تراه فانه يراك . وإن المؤمن إذا عَبَد الله كأنه يراه واستحضر عظمته وكبرياءه وقدرته لم ينشغل قلبه بأي شئ دونه .

تلك مقامات العبودية والتقوى لله رب العالمين، وحريٌ بالعبد المؤمن أن يطلب الارتقاء فيها ابتداءً من أول مقاماتها إلى أعلاها . والعبد لا يرتقي إلى مقام وهو لم يستكمل الذي قبله . والمقصود أن لا أحد يدعي الارتقاء إلى مقام المشاهدة وهو من أهل الإصرار على المعاصي ، أو أنه ارتقى إلى مقام الزهد وهو لم يستكمل بعدُ مقام التوحيد والإخلاص لله رب العالمين .ولله الفضل والمنة وهو الهادي إلى سواء السبيل .

ختاماً أخي الكريم ، خير لك ..

إن ذكر الموت والقبر وعذاب النار قد تنقبض منه النفس، فكل نفسٍ مجبولة على كراهية الموت وحب الحياة، ولكن العاقل هو من يعلم أن الحياة الحقيقية ليست في الدنيا وإنما في الآخرة؛ تلك الحياة التي لا موت فيها ولا انقضاء لها. والموت مهما كنت تكرهه فلا مفر منه، وأنت تسير إليه مع كل نفس يخرج من صدرك، وتقترب إليه في كل لحظة من حياتك، وهو مَعبرك إلى الحياة الآخرة شئت ذلك أم أبيت، انتبهت لذلك أم تغافلت، وأنت ملاقيه لا محالة.

قيل للحسن البصري: يا أبا سعيد، كيف نصنع؟ نجالس أقواماً يخوفوننا حتى تكاد قلوبنا تطير، فقال: والله، إنك أن تخالط قوماً يخوفونك حتى يدركك الأمن، خير لك من أن تصحب أقواماً يؤمنونك حتى يدركك الخوف.

يقول الله تعالى عن النار:

﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ۚ كَانَ عَلَىٰ رَبِّكَ حَتْمًا مَّقْضِيًّا ﴿٧١﴾ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴿٧٢﴾ ﴾ (مريم).

فقدْ تيقن أنك سترد على النار وتعبر من فوقها، أمرا مقضيا من رب العزة سبحانه وتعالى على كل العباد، فهل أيقنت بالنجاة منها ؟ أأمنت العبور مِن عليها ؟ أأمنت ألا تسقط فيها ؟

عن الضحاك قال: إن لجهنم زفرة يوم القيامة لا يبقى ملك مقرب ولا نبي مرسل إلا خر ساجدا يقول: ربِّ نفسي نفسي.

أخي؛ كيف بك بنار فيها من ألوان العذاب ما لا يعلمه إلا الله، ثيابهم من نار، وطعامهم من ضريع، وشرابهم من الحميم. أتدري ما الضريع ؟ هو نبت ذو شوك لاصق بالأرض، فإذا يبس فهو الضريع، لا تقربه دابة ولا بهيمة ولا ترعاه وهو سم قاتل، وهو أخبث الطعام وأشنعه. وأما الحميم فهو شراب حين يدنو من وجوههم يشويها، وحين ينزل إلى البطون يقطع أمعاءهم.

كيف بك بنار يأتي فيها الموت مَنْ فيها مِن كل مكان، ولكن لا يموت، بل باقٍ فيها وحاله ما لا يعلمه إلا الله.

كيف بك بنار عليها ملائكة غلاظ قد نزع الله من قلوبهم الشفقة، وجعل بيدهم مقامع من حديد يضربون بها أهل النار، لو ضُرب بها جبل لتفتت.

أخي؛ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

(نِعْمَتَانِ مَغْبُونٌ فِيهِمَا كَثِيرٌ مِنْ النَّاسِ الصِّحَّةُ وَالْفَرَاغُ).[1] .

والغبن هو الخسارة في البيع، ومعناه هنا أنه يضيع صحته ووقته فيما لا ينفعه في الدنيا ولا ينفعه في الآخرة. وهذا أعظم من الخسارة في البيع والشراء.

وإن هذا الكتيب ذكرى لي ولك لعله يكون سببا في نجاتنا من النار ودخول الجنة، وذلك هو الفوز العظيم.

(١) رواه البخاري في صحيحه رقم (٦٤١٢)

أخي العزيز: تذكر...

إن تلك الدار التي تحيا فيها اليوم لا شك أنك تاركها ومفارقها، سَلَّم بذلك كل مؤمن وكافر، وإنك حتما راحل إلى دار أخرى لا انتهاء لها ولا موت فيها، فإن كنت من المؤمنين بالدار الآخرة حق الإيمان فاستعد لها وجهز لحياتك هناك، وعمّرها، وعُمرانها لا يكون إلا بالتقوى وذكر الله والنوافل والدعوة والجهاد في سبيل الله إن استطعت إلى ذلك سبيلا....

أخي الكريم، لا تكن مثلهم؛ فإن أكثر الناس اليوم يسعون في ملذاتهم أو يسعون في شهواتهم، وينشغلون عن آخرتهم لأنهم حمقى، همّهم العاجلة وينسون الآخرة، وسيأتيهم الموت فيقطع عليهم تلك الملذات والشهوات فينتهي عندها كل شيء، ثم بعد ذلك ينتقلون لحياة باقية قد خربوها، وحساب شديد وعذاب أليم، فلا تكن مثلهم، ولا تلهيك الدنيا بفتنها ومشاغلها، ولا تُسوِّف لنفسك العمل وتستطيل الأمل، فغداً الذي ترجوه قد لا يأتي، وسيأتي عليك يوم ما غدٌ لك لن يأتيك وأنت حي في الدنيا، فاستفق يا غافل قبل أن تقول: (يا ليتني قدمت لحياتي).

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

آيات حق على عاقل أن يتدبرها

قال تعالى: ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾

(المؤمنون: ١١٥)

قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَاهُ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ ٱلْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا ﴿١١٣﴾ ﴾

(طه: ١١٣)

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾ ﴾

.(آل عمران: ٣٠)

قال تعالى: ﴿ وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً ۚ كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَىٰٓ إِلَىٰ كِتَٰبِهَا ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٨﴾ هَٰذَا كِتَٰبُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾ ﴾

(الجاثية: ٢٨- ٢٩)

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (هود ١٥-١٦)

قال تعالى: ﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَٱلشَّيَٰطِينَ ثُمَّ لَنُحْضِرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جِثِيًّا ﴿٦٨﴾ ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى ٱلرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا ﴿٦٩﴾ ثُمَّ لَنَحْنُ أَعْلَمُ بِٱلَّذِينَ هُمْ أَوْلَىٰ بِهَا صِلِيًّا ﴿٧٠﴾ ﴾ (مريم)

قال تعالى: ﴿ يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ ۚ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا ﴿١٠٤﴾ ﴾ (طه)

قال تعالى: ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَعْمَلْ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا ﴿١١٢﴾ ﴾

(١١٢)(طه)

قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجًا مِّمَّن يُكَذِّبُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿٨٣﴾ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُو قَالَ أَكَذَّبْتُم بِـَٔايَٰتِي وَلَمْ تُحِيطُوا۟ بِهَا عِلْمًا أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ وَوَقَعَ ٱلْقَوْلُ عَلَيْهِم بِمَا ظَلَمُوا۟ فَهُمْ لَا يَنطِقُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾

(٨٥)(النمل)

قال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ (هود)

وتأمل طويلا أخي المسلم ذلك الحديثين:

عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم –: (يؤتى بأنعم أهل الدنيا من أهل النار يوم القيامة، فيصبغ في النار صبغةً، ثم يقال: يا ابن آدم هل رأيت خيراً قط؟ هل مر بك نعيمٌ قط؟ فيقول: لا والله يا رب، ويؤتى بأشد الناس بؤساً في الدنيا من أهل الجنة، فيصبغ صبغةً في الجنة، فيقال له: يا ابن آدم هل رأيت بؤساً قط؟ هل مر بك شدةٌ قط؟ فيقول: لا، والله ما مر بي بؤسٌ قط، ولا رأيت شدةً قط)[1] .

وعن عدي بن حاتم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ليس بينه وبين ربه ترجمان، فينظر أيمن منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر أشأم منه، فلا يرى إلا ما قدم، وينظر بين يديه فلا يرى إلا النار تلقاء وجهه، فاتقوا النار ولو بشق تمرة)[2].

(١) رواه مسلم رقم (٢٨٠٧).

(٢) رواه مسلم رقم (١٠١٦)

الفهرس :

إهداء.....3
مقدمة.....5
المتقون 9
الخوف من الجليل.....12
خوف الصالحين 22
العمل بالتنزيل.....29
الرضا بالقليل.....43
الاستعداد للموت والرحيل.....49
قصص عن تقوى الله عز وجل.....65
قصص عن حسن و سوء الخاتمة.....70
ثمرات التقوى في الدنيا والآخرة.....79
مراتب ومقامات التقوى 82
ختاما:أخي الكريم ؛ خير لك.....85
آيات حق على عاقل أن يتدبرها:.....89
الفهرس.....92